الديباجة

احمدك يا من تفردت بالقِدَم وانشأت البرايا من العدم، وسطرت آيات قدرتك على صحف المبروءات ونشرت الوية حكمتك في رحاب الارض والسموات . وخلقت على صورتك الانسان . وفضّلته بالعقل والنطق والبيان على سائر الحيوان. وجعلت مناهج الحكماء معارج النشوء والارتقاء . واعلنت لنا حقيقة الحقائق انك علة الخلائق . وأيدت عبادك المتقين علماء الامّة والدين بالحق اليقين والنصر المبين . وأشهد انك الواحد الاحد الحيّ الصمد الازل السرمد . واكرّر حمدي لك والحمد من هباتك وأُصلي لك والصّلاةُ من صِلاتك . واعوذ بك من شرّ الحاسدين ومكايد الملحدين . وأسألك ببكر خليقتك وصورة حقيقتك وبهاء مجدك وعنوان قصدك . شمس الاكوان ونتيجة البرهان . الشاهد الامين الكائن قبل انشاء العالمين . أن تخلص مقصدي وتأخذ بيدي واياك استعين وبك اهتدي

فنفى الخالق سبحانهُ وتعالى وقال "لا شك ان الذين يقولون بوجود قوّة ابدعت العالم من لا شيء لا يستندون في قولهم هذا الى شيء من العلوم الطبيعية والفلسفة العملية التي تتبع العلم في سيرهِ وتتغيّر مع تغيُّر الافكار بتغيُّرهِ وانما يفعلون ذلك انقيادًا لفلسفة موهومة نشأت عن نقصان الاختبار في سالف الازمان" وسنبين بطلان ذلك في محلهِ ان شاء الله . والفصل الثاني "في الوجود المعنوي والوجود المادي" قال فيهِ "اسبقيَّة المعنى على اللفظ وضعيَّة" وكرَّر هذا المعنى بقولهِ "فالسبق هنا وضعيٌّ لا مطلق" وسيأتي الكلام على وضعهِ في الردّ على فصلٍ سمَّاهُ "كشف الخلط واظهار الغلط" . والفصل الثالث "ضد ورد" قال فيهِ "ان القوة والمادَّة شيءٌ واحد" وسيأتي الكلام على هذا الخلط في مكانهِ. واقام في هذا الفصل الادلة على اثبات مذهب دروين وسأذكرها مع سائر ما ذكرهُ في ردّهِ عليَّ . والفصل الرابع "في معرفة اصل الانسان ذكر فيهِ بعض اوهام الاقدمين في الافلاك وهزئ ما شاء بقول الكليم واقوال علماء الدين بقدرة الله فقال "ان العوالم خاضعة في مجراها السنن ثابتة لا معلقة تمسكها يدٌ خفيَّة وتدبرها كما تشاء وبحسب ما لها من الاهواء" واطال فيهِ الكلام بلا طائل فلم يفه بما يبين اصل الانسان الا

اما بعدُ فقد وقفت على رسالةٍ لاحد ابطال دروين سماها الحقيقة. وقال "هي رسالة تتضمن ردودًا لاثبات مذهب دروين في النشوء والارتقاء" وقد جعلها اربعة ابواب

الباب الاول "في مذهب دروين وعلماء النظر وفيهِ ديباجة واربعة فصول" يليها ملحق. اما الديباجة فشتمٌ لمجهولٍ قال انهُ وقف على كلامهِ في مذهب دروين فاجتزأ بالسباب عن الجواب. ومن ذلك قولهُ "فمن حاطب ليل تخبَّط فيهِ تخبُّط من ضلَّ السبيل وخانهُ الدليل فاكثر من القول الهراء وبالغ في التشنُّط والاغراء". وقولهُ "فهلاَّ ايها الكاتب الحاطب فلقد طالما اصغيت الى بيانك لعلي استضيء بضوء برهانك فاذا انت كرجل متقلد هراوة مقطوعة من غابات الغباوة يهش بها على الانام كراعي الاغنام"

وياليتهُ اقتصر على مخاطبتي بمثل هذا الخطاب ولم يتجاوز عتبة ذلك الباب. فصفحت واعرضت عن نفثات يراعتهِ وما تصديت لبيان بضاعتهِ. والفصل الاول "في المادة والقوة" رحَّب في اوَّلهِ بفيلسوف ادعى انهُ سلَّم لهُ بازلية المادَّة ثم قال بخلقها. فخطَّأهُ وانذرهُ ووعظهُ وحذَّرهُ. كعادتهِ في النزال وميدان المجريين من الابطال ثم توغل في اودية الوهم والخيال.

الاوهام والاهواء ومن لم يقف على خبطهِ من اصدقائهِ العقلاء،
فاني من محبي حسن صيتهِ ورفعة مقامهِ وان كنت من مبغضي
كفرهِ واوهامهِ

هذا ولم يذكر من مناهج الحكماء سوى كلماتٍ غيّر بعضها
عن اصلهِ ووضع البعض في غير محلّهِ . واخطأَ في بعضها
الفهم وغشيهُ في غيرهِ الوهم . فهام في بسيط الشطط وارتطم في
مركّب الغلط . ولهذا سمّيت ما سماهُ بالحقيقة بخبط العشواء في
تخطئة مناهج الحكماء. وهو اسمٌ اضنُّ بهِ على غير حقيقتهِ وحقائق
السارين في ظلمات طريقتهِ. فهل يكون من الشاكرين ويعدل
عن مُعتسف الباطل الى الحق اليقين

والباب الثاني وهو مدخل ردّهِ عليّ "في اثبات مذهب
دروين وفساد نقيضهِ وفيهِ ديباجة وسبعة فصول" تليها خاتمة

والباب الثالث "في آراء علماء الطبيعة في اصل العوالم
وفيهِ ثمانية فصول"

والباب الرابع "في الحياة واصلها وفيهِ اربعة فصول" تليها
خاتمة وهي نهاية الخبط

وقد اخترت في ردّي عليهِ ان لا اقتصر على ابطال ما
أنكرهُ من دعاويهِ وما توغّل بهِ في اودية التيه.فانيت بمقالات

بقوله "ما الفضل في معرفة اصل الانسان باقل من ذلك ومرجع هذا الفضل الى لامرك وداروين اللذين ردّا الانسان الهابط من السماء والذي لا يزال يصبو اليها الى مقامهِ الحقيقي في الطبيعة". وقوله "فهو (اي الانسان) لم يوجد كما هو الآن دفعة واحدة بل اقتضى لهُ ملايين من السنين حتى خرج من الحيوانيّة الى الانسانيّة" ولكنهُ اتى في هذا الفصل بما يلزم منهُ انهُ يعتبر الفضائل والآداب. ومن ادبهِ فيهِ قولهُ "لولا الجهل لما سن الناس الشرائع التي يهضم بها الكبير حقوق الصغير. ولما رأيت بعضهم يعربد علينا كالبعير". ولقد وددت لو لم يتفوه هذا الاديب بهذه العبارة البعيريّة. واما المحق فهو نزال بين هذا البطل وذلك الفيلسوف اورد فيهِ بعض ما اوردهُ في ما سبق من الادلة على مذهب دروين

وما ذكرت مشتملات هذا الباب الأ لبيان ادب المؤلف في المناظرة وايضاح عذري في تفنيد ما له علاقة بما افندهُ من كلامهِ وان لم يكن موجّهًا اليّ

واما الابواب الثلاثة ففتحها للرد على رسالتي مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء وكشف خلطي وغلطي كما قال. ويا ليتهُ اوصدها وبقي في المنزلة التي كانت لهُ في اذهان بعض اهل

الباب الاول

في ديباجة ليث العرين وبيان مذهب دروين

الفصل الاول

في الديباجة

قال موشّي تلك الديباجة "ألا قل لمن عدَّ مذهب دروين وساوس. واجتهاد اصحابهِ دسائس" فألا حرف استفتاح للتنبيه نبَّه بهِ المخاطب الى ما يأتي لانهُ ذو شان. و"قل" خطاب لغير معيَّن. فهو أمرٌ إما لكل انسان على وجه الارض واما لكلِّ ممَّن يذهب مذهبهُ وفي كلا الامرين ما فيهِ. ويحتمل انهُ خطاب لنفسهِ على سبيل التجريد كقول الشاعر

تطاول ليلك بالاثمدِ   ونام الخليُّ ولم ترقُدِ

ادعاء انهُ بلغ غاية الغايات من العلم ودوامغ الحجج فتسنَّى لهُ ان ينتزع من نفسهِ "بطلاً آخر مجرَّبًا" متصفًا بذلك. لكن فيهِ انهُ نبَّه نفسهُ باداة الاستفتاح وذلك مما يجلُّ عنهُ نبيهٌ مثلهُ في تخطئة

وجيزة في الامور ذات الشان تكميلاً للفائدة وتنويرًا لبعض
الاذهان واعتزلت كشاني في هذا الميدان غير اسلحة البرهان،
فانها هي عدّة المناظرة لا المغالطة والمكابرة ولا المشاتمة
والمهاترة . هذا واسأل الله الهداية،
وتوفيقي في البداءة
والنهاية

وقال "فحمل عليه بريد طعنهُ باسنّة ايمانهِ وذبحهُ بقواطع برهانهِ". اراد اني بسبب عدّي مذهب دروين ما ذكر حملتُ الخ قلت وهذا ما لم يحسن نقلهُ ولم يراعِ محلهُ والاصل "فوجب النزال . وفلّ جيوش الضلال . قياماً بما اوجبهُ الله على اهل كتابهِ . وانصار دينهِ واصحابهِ . من طعن الكفر باسنة ايمانهِ . وذبح التعطيل بقواطع برهانهِ". فترى ان الطعن بتلك الاسنة والذبح بتلك القواطع ليس لمذهب دروين بل للكفر والتعطيل وهو نفي الواجب تعالى عن اوهام المعطلين علوّاً كبيراً . ولعلّ هذا التحريف من باب الضرورة المادية او من صنوف خبطاتهِ الدروينيّة . ولا يتوهم احدٌ من تبرُّئي من ذلك اني اصدق المذهب الدرويني بل اقول بامكان النشوء والارتقاء بفعل الله وليس كل ممكن واقعاً مع اني صرحت في المناهج باعتقادي ان الاعتراضات عليهِ لم تدفع دفعاً مقنعاً الى الآن ولم يقم على اثباتهِ برهان يطمئن بهِ من خلا قلبهُ من الهوى ولم يرغب في سوى الوقوف على الحق من المباحث العلمية . وقد ادّعى صاحب "خبط العشواء" اني صدقت النقيضين من قولي بابطال المذهب الدرويني واعتقادي امكان ارتقاء بعض الاهلين ونشوئهِ وهذا تجاهلٌ او سوء فهم فاني اطلقت مذهب دروين

"بعض ادباء اللغة" .وبقي في ذلك احتمالات كثيرة ارجحها عندي انهُ خطاب لبعض نظرائهِ او نصرائهِ رأى مناهج الحكماء فلم يستطع نهجَها فذاب حسدًا وذهل وجلاً وكمدًا فنبههُ وخاطبهُ بذلك اشماتًا وتجرئةً وتعزيةً والله اعلم

واما قولهُ اني عددت مذهب دروين وساوس فليس وفق اصلهِ والاصل "الوساوس الدروينيَّة" اي وساوس الكفر التي خلجت صدور الاغرار والاشرار من مذهب دروين فان الجهلاء بنوا على ذلك المذهب ان الانسان كسائر البهائم غير مكلَّف فلا يحظر عليهِ شيء استطاعهُ فكتب الوحي والدين من حيل الدهاة وتخرصات الاوهام على ان الوساوس تكاد تأبى ان تُحمَل على بعض المذهب الدرويني . ولهذا لم اتوقف عن ان اقول كذلك في غير مناهج الحكماء . وقولهُ انني عددت اجتهاد اصحابهِ دسائس لا شيء منهُ في كلامي وارى انهُ ما ساقهُ اليهِ سوى السجع ولا يؤَاخذ بهِ على مذهب الماديين الذي هو من مقلّديهِ لانهُ عن ضرورة لا قصد بل كل رسالتهِ من ذلك الباب لان الاختيار عندهُ اسم بلا مسمًّى وسيأْتي بيانهُ في موضعهِ . ولعلهُ رأَى من نفسهِ ان اجتهاد اولئك الاصحاب كذلك فلا أَدفعُ شهادة وجدانهِ وان كانت ليست بحجةٍ عليَّ

او بعض الذاهلين . واطال واستطال . وجال في ميدان الابطال . وامر بسلطانهِ اعيان الخارج وصور الخيال . ووقف على منبر ابن جلا ووضع العمامة . واقام على المؤمنين القيامة . لينبهّني او يؤنبّني على اني استسهلت الصعب . فان صدق باني اتيت ذلك فهو مما يوجب لي المدح لا السب . فان اكابر العلماء واعاظم الحكماء ما ادركوا الرغائب . الاَّ بان استسهلوا صعاب المطالب . وما احسن قول القائل وان استهجنهُ مناظري الباسل

لأَستسهلنَّ الصعبَ او أُدركَ المُنى
فما انقادت الآمالُ الاَّ لصابرِ

وهذا ما يعلمهُ صبيان المكاتب فلا يقتضي شيئًا مما تكلفهُ من ذلك التهويل . واما قولهُ "وما الصعب بهيّن" فمن معجزات التعبير . وهو دون قول القائل

كأَنَّنا والماءُ من حولنا   قومٌ جلوسٌ حولهم ماءُ

الاَّ ان كان قد اراد التعريض بأَني لا ادرك البديهيات فيكون ذلك من ابكار ما لهُ من البدائه ومخدرات ما لهُ من البدائع . غير انهُ يوجب عليهِ ذلك الحكم لمناظرتهِ من هذه صفتهُ . أَوَلم يقرأْ قول بعضهم "مناظرك نظيرك" . لكن بقي انهُ كتب تلك العبارة وهو ساهٍ او نائم اوانها جاءت من باب الخبط كنظائرها

على النشوء الذاتي وهو مذهب المعطلة واللاأدرية وهو باطل لا محالة. وهذا كلامي في الصفحة الخامسة من مناهج الحكماء "المراد بالمذهب الدرويني نشوء افراد العالم شيئًا فشيئًا وتنوعها بتفرع بعضها من بعض وارتقاؤها في سُلَّم الكمال ارتقاء بطيئًا الى ان بلغت طورها اليوم ولا تزال كذلك واصحابهُ ثلاث فرق المعطلة واللاأدرية والالهية". نعم اني اوجزت البيان في تلك المقالة لكن لضيق المقام لاني نشرتها في الاسبوعية فاختار طبعها احد العلماء الافاضل وحدها ونشرها رسالةً. وانظر هل علة تهكمهِ على اسنة ايماني (اي ادلتهِ) أنَّهُ وقف عليها ونظر فيها فحكم بوهنها لا انما يحسب الايمان كلهُ تسليمًا بلا برهان كما يستفاد ذلك مما ذكرهُ في الصفحة الثانية والستين من خبطهِ. قلت ذلك شأن تقليدهِ في دعاويهِ الباطلة فاني بالبراهين القاطعة آمنت بالله وصفاتهِ ووحيهِ وآياتهِ وهي التي اردتها بقولي "اسنة ايمانهِ وقواطع برهانهِ". فكان عليهِ ان يقول بدل قولهِ "فحمل عليهِ بريد طعنهُ الخ. فحمل على الكفر والتعطيل فطعنها باسنة ايمانهِ وذبحها بقواطع برهانهِ"

وقال "رويدك انك لقد استسهلت الصعب وما الصعب بهيِّن" وهو مفعول لقال في بدء كلامهِ. فترى انهُ نبَّه الغافلين.

ولعل صاحبنا يذكر ان نيوتن رئيس الفلاسفة خطّأَهُ مَن بعدهُ في بعض المسائل كقولهِ بان الضوء اجسام صغار وهو "قد بحث فيهِ السنين الطوال". ومُثُل ذلك كثيرة يضيق بها المقام ولا حاجة الى ذكرها

والثاني ان العلماء لم يثبتوا مذهب دروين وكثيرون نفوهُ وطعنوا فيهِ مع علمهم انهُ بحث فيهِ عشرين سنة . ومنهم العلاّمة ونشل مع انهُ من اشد الناس ميلاً الى القول بالارتقاء بفعل الله قال ما ملخّصهُ "دعوى الارتقاء لم تثبت ببرهان" (كتاب الارتقاء الصفحة ٩٠ و٩٢ و١٠٥ و١٣٢) . ومنهم العلاّمة ولاَس قال ما خلاصتهُ "الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الانسان ولا بدَّ من القول بخلقهِ رأْساً" (الانتخاب الطبيعي الصفحة ٣٣٢). ومنهم الاستاذ فرخو قال "يتبيَّن لنا من الواقع انَّ بين الانسان والقرد فرقاً بعيداً فلا يمكننا ان نحكم بأن الانسان سلالة قرد او غيرهِ من البهائم ولا يحسن ان نتفوه بذلك" (نقل ذلك عنهُ يوسف كوك في خطاب الخامس عشر من نيسان سنة ١٨٧٨) . ومنهم ميفرت قال بعد ان نظر في حقائق كثيرٍ من الاحياء "ان مذهب دروين لا يمكن تأْييدهُ وانهُ رأْيٌ من آراء الصبيان" (تكوين الانواع الصفحة ٦٢ و ٣٠٠

في حقيقتهِ فلا مؤاخذة

وقال "ألا راعك بعد الشقة او لم تدرِ ما اوجبت على نفسك من المشقة" قلتُ لا تبعد شقة مثل هذه المطالب الّا على المقلدين . الذين لا يعلمون الحجة ولا مقدمات اليقين . وعندهم محكم البرهان . ان يقولوا او يقال لهم قال فلان . على ان من لا يروعهُ بعد الشقة . ولا يبالي في سبيل الحق من مشقة . أولى بالمدح والاكرام . لا بالذم والملام . الّا ان يكون علّامة الحقيقة اكتشف من قواعد الوهم والفرض . ما نسخ بهِ مبدأ كل عقلاء الارض

وقال "ام كيف ساغ لك طعن تعليم داروين وقد بحث فيهِ السنين الطوال ونقض ما شيد عليهِ وهو ارسى من الجبال" قلت في ذلك ثلاث قضايا . الاولى انهُ لا يسوغ لاحد ان يطعن في ما بُحث فيهِ زمانًا طويلاً وهي باطلة لثلاثة . الاول ان طول البحث لا يتكفل بصحة المبحوث فيهِ فقد يشغل المرء عمرَهُ بالبحث عن امرٍ ويثبتهُ وهو باطلٌ . فكثيرون من الاقدمين كفيثاغورس وارسطاطاليس وافلاطون وغيرهم نقضّى عليهم في البحث سنون كثيرة وقد ابطل المحدثون كثيرًا من اقوالهم وكثيرون من المحدثين ابطل الذين بعدهم شيئًا من مذاهبهم .

عن بخار وقد ترجم قولهُ "ان كثيرًا من الحوادث لا ينطبق على مذهب دروين وربما كان معهُ على طرفي نقيض" وهو طعنٌ صريح

والثالث ان دروين نفسهُ طعن في مذهبهِ بعد كل ذلك البحث بقولهِ "يقودني التمثيل الى القول بأن كل الحيوانات والنباتات من اصل واحد ولكن التمثيل دليلٌ خادع" (او يمكن ان يخدع). (انظر اصل الانواع لدروين طبعة ١ فصل ١٤ صفحة ٤٨٤). فليقل لي كيف ساغ لدروين ان يأتي ذلك والاَّ فليعذرني ان لم يصوبني. بل اقلُّ ما اسألهُ اياهُ ان يرعوي عن تسمية مثل هذا البُهْت "حقيقة" اكرامًا لارباب الحقائق. ولا ادري كيف ساغ لهُ ان يطعن في القول بالواجب تعالى وفي كل دين وفي كل علماء الالهيات وقد بحثوا في مذاهبهم الوفًا من السنين ولم يسغ لنا ان نطعن في النشوء الذاتي او القول بأن الانسان اخو القرد وقد بحث دروين فيهِ عشرين سنة. ولا يبعد ان يقف صاحبنا يومًا على اكمة المريخ ويشير بصولجان سلطانهِ ويقول "يا اولاد الضرورة والاتفاق. وسلالةَ القردِ الانسانِ في كل الآفاق. حظرت عليكم أن تنتقدوا ما بُحِث فيهِ طويلاً. او أن تبدوا فيهِ رايًا أو قولاً. فلا يسوغ لكم الاَّ ان تتبعوا طريقتي. وتأتمروا بحقيقتي"

و ٤٨٤) . ومنهم العلاّمة فون بسكوف قال بعد ان درس هو وفرخو تشريح المقابلة بين الانسان والقرد "الفرق بين البشر والقرود اصليٌّ وبعيد جدًّا" . ومنهم العلاّمة اغاسيز قال في رسالة في اصل الانسان تُليت في ندوة العلم الفكتورية ما خلاصتهُ "ان مذهب دروين خطأٌ عليٌّ باطلٌ في الواقع واسلوبهُ ليس من اساليب العلم بشيء ولا طائل تحتهُ" . ومنهم العلاّمة هكسلي وهو من اللاأدرية وصديق لدروين قال "انهُ بموجب ما لنا من البينات لم يتبرهن قط ان نوعًا من النبات او الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي او الانتخاب الصناعي" (خطب عاميّة الصفحة ٣٢٦) . ومنهم العلاّمة تندل وهو كهكسلي قال "لا ريب في ان الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون انهُ نتيجة مقدّمات لم يسلَّم بها" (فائدة التخيُّل العلمي الصفحة ٤٦٩) . وقال "من المحقق عندي انهُ لا بدَّ من تغيير مذهب دروين" (خطاب بلفست الصفحة ٦٣) . وماذا عسى نحصي من مثل هذه الاقوال فانها لو جُمعت لكانت مجلدًا اضخم من دعوى صاحبنا بطل الابطال . فليتخذ اعلى السكاك منبرًا وهزُم رعود الآفاق صوتًا وليقل لعلماء الدنيا باسرها "كيف ساغ لكم ان تطعنوا مذهب دروين وقد بحث فيهِ السنين الطوال" . ولا ادري كيف سكت

في كتابهِ دروس الطبيعة "ان رأْي دروين لايمكن اثباتهُ وان الانتخاب الطبيعي ليس بأَصل الانواع". فترى الشاهد على ابطال كون ذلك الانتخاب اصل الانواع لا ابطال الانتخاب عينهِ . ولعل صاحب الخبط لو تأَمَّل في هذا قليلاً لاستغنى عمَّا تقعَّر بهِ في الكلام على الانتخاب الطبيعي.ويحجبني هنا اعادة قول هكسلي صديق دروين "انهُ بموجب ما لنا من البينات لم يتبرهن قط ان نوعًا من النبات او الحيوان نشأَ بالانتخاب الطبيعي او الانتخاب الصناعي" (خطب عامية صفحة ٣٢٦).وقول الاستاذ فرخو البرليني في خطابهِ الذي تلاهُ في مدرسة ادنبرغ الكبرى على الفٍ من الطلَبة "ما للارتقاء من ركنٍ علمي"

هذا ولا مانع عندي من فرض المطلوب وفرض اسٍّ لهُ للاستقراء والاستدلال والتحقيق بل لا بدَّ من الفرض في مثل هذا لانهُ هو السبيل الى استنباط العلوم انما يحظر على العاقل القطع بصحة ما فرض قبل تحقيقهِ . ولا اظن ذلك يفهمهُ غير اهلهِ من مجرد هذه الكلمات فاوضحهُ بهذه المقالة الوجيزة

والثانية اني نقضت ما شاد عليهِ دروين مذهبهُ وهي خلاف الواقع فاني نفيت القول بثبوت ذلك المذهب وصرحت بأن ليس لهُ من اساس علميّ. اما الانتخاب الطبيعي فلم اتعرض في المناهج لنفيهِ ولا لاثباتهِ انما نفيت كونهُ ركن النشوء والارتقاء وهو قول حق لا يلزم منهُ نفي ذلك الانتخاب فالآفة سقم الفهم

والثالثة ان اس ذلك المذهب ارسخ من الجبال. وهي باطلة كالسابقتين الاَّ ان اراد بذلك الاس الانتخاب الطبيعي لان دروين اتخذهُ ركن مذهبهِ ولكن ذلك لا يثبت الاَّ بفرض انهُ يبلغ بالافراد الى ان ينشئَ منها انواعًا وهذا لم يثبت فقد بني الفرض على الفرض ولهذا ولنظائرهِ قلت في مناهج الحكماء "آراء القوم مجموع فروض وتصورات واوهام". ولكن صاحبنا كرَّر قولهُ في حقيقتهِ ما معناهُ اني قلت في المناهج "ان الانتخاب الطبيعي فرض ورأي من صور الوهم" والصحيح اني قلت ما مفادهُ ان كونهُ ركن النشوء والارتقاء كذلك. وهذا قولي بحرفهِ "ثم ان ركن النشوء والارتقاء عند دروين الانتخاب الطبيعي وهو فرض بلا اثبات ورأي من صور الوهم" والضمير يعود الى حكم دروين اي كون ذلك الانتخاب الركن واوضحت ذلك بقولي على أثرهِ "وقد ابطلهُ كثيرٌ من العلماء ومنهم الاستاذ جورج ميفرث قال

ثبوتهِ لاكثر جزئياتهِ وهو لا يجلي صورة الاستقراء للذهن وقيد الاكثرية فيهِ خطأٌ لان اول انسانٍ قال بأَن كل حيوان يموت لم يستقرِ اكثر حيوانات عصرهِ في اقليمهِ ولا نصفها ولا ما يقرب منهُ فضلاً عن اكثر افراد الحيوان في كل زمان ومكان. والذي اختارهُ انهُ اثبات حكمٍ للكليّ ثبت لبعض جزئياتهِ لمماثلة كليٍّ من هذا البعض لكلٍّ من سائر تلك الجزئيات . وخلاصتهُ ان الاستقراء عملٌ عقليٌّ تكتشف بهِ القضايا العامة وتحقق فالفرق بينهُ وبين القياس انهُ يتوصل بهِ الى علم ما جُهل من الكليات من معرفة الجزئيات وبالقياس الى الحكم على الجزئي او الكليّ بما عُلم من الحكم على الكليّ . فقولنا كل انسان يموت لان زيدًا وعمرًا وبكرًا وغيرهم ماتوا استقراءٌ وقولنا زيد يموت لانهُ انسان قياس

واعمال الاستقراء اربعة المشاهدة والفرض والقياس والتحقيق . فالمشاهدة ادراك ظواهر المواد بالحواس الظاهرة ويشترط لاستنباط العلم بها الانتباه فكثيرون يشاهدون ولا يستنبطون لكن النبيه اذا راقب المدّ مثلاً اياماً متوالية عرف انهُ يتأَخر في يومهِ خمسين دقيقة عن وقتهِ في امسهِ. واذا اتى ذلك بضعة اشهر رآهُ يبلغ معظم ارتفاعهِ على اثر اقتران القمر بالشمس

المقالة الاولى

في استنباط العلوم

المراد بالعلوم هنا طوائف من الاصول تجمع كلاً منها جهة واحدة او تتعلق بموضوع واحد . والاصول ويرادفها القواعد والقوانين هي الكليات المنطبقة على جميع جزئياتها كقولنا الحرارة تفرق دقائق الاجسام فانهُ يصدق على حرارة الحيوان وحرارة النار وسائر افراد الحرارة . ولا يمكن استنباط العلوم الّا باستنباطها لانها موادّها . ولا يمكن بلوغ ذلك بمجرد القياس المنطقي كما وهم كثيرون فانهُ لا يتوصل بهِ الّا الى ما تضمنتهُ مقدمتاهُ المعلومتان . ففي قولنا كل جَ ب وكل ب ا لا نتوصل الّا الى ان كل ج ا وذلك ضمن المقدمتين المعلومتين اي ان كل ج ب وكل ب ا والمطلوب ان نعلم كيف نتوصل الى المبادئ التي ينتهي اليها القياس مثل كل ب ا اي ان كل فرد من افراد ب يصدق عليهِ ا فلو كانت افراد (ب) (ل) و(م) و(ن) لكان كل ل ا وكل م ا وكل ن ا وذلك لا يحصل الّا بالاستقراء . وعرفهُ القدماء بأنهُ اثبات حكمٍ للكليّ بواسطة

وكل قياس مؤَلف من ثلاثة حدود موضوع المطلوب ومحمولهُ والمكرر في المقدمتين فالاول يسمى حدًّا اصغر لانهُ اخص من المحمول في الاغلب والثاني حدًّا اكبر والثالث حدًّا اوسط لانهُ متوسط بين طرفي المطلوب وهو ميزان الطرفين فلا نتيجة بدونهِ . وتُسمَّى المقدمة المشتملة على الحد الاصغر صغرى والمشتملة على الاكبر كبرى . ومثال ذلك كل ج ب وكل ب ا فكل ج ا فقولنا كل ج ب مقدَّمة صغرى وقولنا كل ب ا مقدمة كبرى وهما موَّلفتان من ثلاثة حدود (ج) و(ب) و(ا) فج حدٌّ اصغر و(ا) حدٌّ اكبر و(ب) حد اوسط

وقسم المناطقة القياس باعتبار وضع الحد الاوسط في المقدمتين الى اربعة اشكال ووضعوا لصحة انتاج ضروبها ثمانية شروط لكل شكل شرطين ولا موضع لبيان ذلك في هذا المقام فاقتصر على ذكر ما يعرَف بهِ المنتج من تلك الضروب بلا افتقار الى مراعاة الشكل وهو انهُ لا بد في كل قياس صحيح من ثلاثة حدود لا اكثر ولا اقلّ ومقدمتين كذلك وان يكون الحدْ الاوسط كليّ المصدوق (اي يراد بهِ كلٌّ من افرادهِ) ولو في احدى المقدمتين وانهُ لا نتيجة من سالبتين وان ما احدى مقدمتيهِ سالبة نتيجتهُ سالبة ولا نتيجة سالبة الاَّ مما كان كذلك وان كل حدّ

واستقباله. وتزيد فائدة المشاهدة بالتجربة وهي من احسن الاسباب الموصلة الى المشاهدة . فاذا خلطت قدرًا من مسحوق السكر بمثله من مسحوق كلورات البوتاسيوم ووضعت على الخليط قطرةً من الحامض الكبريتيك او مسستهُ بطرف انبوبة او ما شاكلها غمس في هذا الحامض لهب . وهذا لم يُعرف انهُ شوهد في الطبيعة بلا تجربة . واذا القيت فارةً في اناء مُلئَ من اكسيد الكربون هلكت فعرفت فعلهُ في الحيوان وهذا تندر مشاهدتهُ بلا ذلك العمل . والفرض التسليم بامرٍ في معرض البحث للتوصل الى المطلوب . ويجب ان يكون المفروض مما يقصر بهِ امد البحث ما امكن والاَّ تعددت المفروضات على التوالي فطال الاستقراء

والقياس ما تالف من قضيتين (تسميان المقدمتين لتقدمهما على المطلوب) تلزم عنهما لذاتهما قضية اخرى تسمى قبل الاستدلال مطلوبًا ودعوى وبعدهُ نتيجة . وهذا يشمل المعقول والملفوظ . اما ما تالف من زائدٍ على قضيتين فقياسان او اقيسة أُضمرت فيهِ بعض المقدمات . وعرَّف مناطقة الاوربيين القياس بانهُ ما تالف من ثلاث قضايا ثالثتها النتيجة فهي عندهم جزء القياس ولم اقف لهم على بيان الداعي الى ذلك ولعلهُ كونها مذكورة في المقدمتين بالقوة او لزومها عنهما لزومًا ذاتيًّا

هو العلة والاّ فرضنا غيرهُ وفعلنا كما سبق وهكذا الى ان يكون المفروض ما يليهِ المراد ابدًا

ونتوقف سهولة الوصول الى العلة او صعوبتهُ على كونها بسيطة او مركَّبة وقد يعسر كلاهما او يتعذر واوضح ذلك بثلاثة امثلة

الاول انَّا شاهدنا النار تشتعل بالهواء فحكمنا ان العلة الهواء او بعض اجزائهِ لانهُ مزيج من الاكسجين والنتروجين وبخار الماء والحامض الكربونيك واقدار زهيدة لا يعتد بها من غير ما ذُكر فنبحث عن ايها العلة فان فرضناها النتروجين وملأْنا زجاجة منهُ ووضعنا فيها جذوة انطفأَت فعلمنا انهُ ليس بالعلة وكذا يكون ان فرضناها البخار او الحامض فان فرضناها الاكسجين وفعلنا كما ذكر زادت الجذوة اتقادًا ومهما كررنا هذه التجربة كانت النتيجة واحدة فنعلم ان الاكسجين علة الاشتعال

الثاني انَّا شاهدنا قطعة لامعة من الحديد عُرّضت للهواء فصدئت فان فرّغنا قنينةً من الهواء ووضعنا فيها حديدة لامعة واحكمنا سد القنينة لم تصدأْ ولو مرت عليها السنون فيظن الهواء في اول الامر علة الصدإِ ولكن الهواء مزيج فمنعهُ عن الحديدة لا يفي بالتوصل الى تعيين العلة فنعرضها لكلٍّ من الاكسجين

كليّ المصدوق في النتيجة لا بد من ان يكون كذلك في احدى المقدمتين . ويستنتج ما ذُكِر ان لا نتيجة من جزئيتين وان النتيجة تابعة لاخس المقدمتين

والتحقيق اثبات المسئلة بالدليل فهو هنا غاية الاستدلال بالقياس

واسمى المطالب معرفة العلل ومعلولاتها . فالعلة ما تقدم على شيءٍ يتوقف عليهِ والمعلول ما كان بما سبقهُ ولذلك يستحيل ان يكون الشيء علةً لنفسهِ لانهُ يلزم ان يتقدم عليها اي ان يكون قبل ان يكون. ولكل الحوادث متقدمات عليها ومتأخرات عنها فالمتقدمات السوابق والمتأخرات التوابع والعلة بعض السوابق القربى التي يليهِ المعلول ابدًا او جملتها كذلك فليس كل ما تقدم على شيءٍ علة لذلك الشيء فغلب ان تلي العواصفُ المصحوبة بالرعد شدّةَ لمعان الشمس وهو ليس بعلّةٍ لها لانها قد تحدث ليلاً . فيجب لبيان علة الشيء ان يعيّن من السوابق ما يليهِ ذلك الشيء ابدًا . ويتوصل اليهِ بأن نفرض بعض السوابق علّة ونتوقع حدوثهُ منفردًا عن سائر السوابق اذا كان مما يكثر وقوعهُ والاّ افردناهُ بالتجربة اذا امكنت لانها اخصر طريق للتوصل الى المطلوب فان وليهُ ما اردنا بيان علتهِ دائمًا كان

بعضها ببعض بكل اعتناء وانتباهٍ وتستخرج المتماثلات من سوابقها فاذا رأيت في الجوّ نهارًا قوس قُزَح بيّنة الالوان وأردت ان تعرف علّة حدوثها وجب ان تنتبه لما سبقها فترى انهُ يسبق مثل تلك القوس دائمًا وقوع مطر في بعض انحاء الجوّ وانهُ لم يشاهد مثلها قط في جوّ على غاية من الصفو او الغيم مطبق والمطر جدًّا اي عامّ . وانهُ لا بُدّ من ان تكون الشمس مضيئة وقطرات المطر واقعة . ويجب ان لا تقف عند هذا الحد اذا اردت كمال تعيين العلّة اي ان لا تقصر المشاهدة على اقواس السحاب بل ينبغي ان تقف على ما امكنك من غيرها من اقواس الاضواء فانّهُ قد يحدث مثل تلك القوس بوقوع ضوء البدر على قطرات المطر وبمقابلة القوس الشمسيّة بالقوس البدريّة ترى ان الضروري سبْق ما يكفي من اشعة الضوء ووقوعها على القطرات لا اشعة الشمس بخصوصها . وبمشاهدة الاقواس الضوئية التي تحدث من وقوع الاشعة على رشاش الماء في بعض احوالهِ ترى انها لا تنحصر في وقوع الضوء على قطرات المطر . وبتكرار مثل تلك المشاهدة والتجارب تصل الى ان العلة انكسار الضوء في قطرات الماء وانعكاسهِ عنها منحلاً الى الوانهِ كما بُيّن في كتب الطبيعة بالتفصيل

والنتروجين وبخار الماء والحامض الكربونيك على حدتهِ فلا تصدأُ فنعلم ان العلة مركبة. فنعرّضها للهواء بعد نزع البخار منهُ فلا تصدأُ فنعلم ان البخار من اجزاء تلك العلة . فنضع القطعة في مزيجٍ من الاكسجين والحامض الكربونيك والبخار فتصدأُ بسرعة وهكذا نصل بتكرار الامتحان الى ان المزيج من الاكسجين والبخار المائي علة صدإ الحديد وان الحامض الكربونيك ان لم يكن جزءًا ضروريًّا من العلة فهو يزيد سرعة الصدإ . فقد رأيت من ذلك ان التوصل الى العلة المركبة اعسر من التوصل الى العلة البسيطة

الثالث انَّا شاهدنا مريضًا اعترتهُ نوبة دائهِ فسقط من السلم فمات فيحتمل ان علة موتهِ المرض وحدهُ او السقوط وحدهُ او كلاهما . والتوصل الى العلة في مثل هذا من اعسر الامور ومنهُ يتبين ان التوصل الى كلٍّ من العلة البسيطة والعلة المركبة قد يصعب كل الصعوبة وقد يتعذر

واذ كانت العلَّة تتقدم على المعلول ابدًا كان لا بدَّ من تكرار مشاهدة الحوادث المتماثلة لمعرفة ما يسبقها دائمًا بتوجيه الحواس الى سوابق تلك الحوادث مع الانتباه لها او بالتجربة او بكليهما . فيجب عند مشاهدة حادثة ان يُنتبَه لما يسبقها ويُذكر كل ما عُرف من امثالها مع كل احوالهِ ومتعلقاتهِ وتجمع الامثال ويُقابَل

حول الشمس فانهما يختلفان اختلافًا دوريًّا اي يعودانِ في ذلك الاختلاف الى مثل بداءتهِ ومدَّة كلٍ من ادوارهِ سنة وهي مدة دوران الارض حول الشمس دورة كاملة. وبهِ عرفوا ان معظم علة المدّ جذب القمر لانهُ عُرف بالمشاهدة ان بين كل مدَّين في مكان واحد من البحر اثنتي عشرة ساعة وخمسًا وعشرين دقيقة وانهُ يحدث في المكان الواحد مدَّان في كل اربع وعشرين ساعة وخمسين دقيقة اي انهُ لو دار مدٌّ واحدٌ حول الارض لعاد في تلك المدة الى حيث ابتدأ دورانهُ . وان تلك مدة زوال القمر من الهاجرة الى عودهِ اليها اي المدة بين سيرهِ الظاهر عن نقطة في السماء الى الرجوع اليها . وعرفوا ان جذب الشمس بعض تلك العلة من انهُ حين تكون جاذبية القمر وجاذبية الشمس على خط واحد يكون المد اعظم وان ذلك يحدث في الشهر مرَّتين اي في الاقتران والاستقبال

واعلم ان تحصيل العلوم اليقينية بالاستقراء صعب جدًّا واعقل العقلاء وانبههم عرضة للخطإِ فيهِ. وانهُ ليس تكرار المشاهدة والامتحان فذلك ليس الَّا طريقًا لادراك السوابق والتوابع فلا وصول بعدهُ وبعد الفرض الى المطلوب الَّا بالاستدلال القياسي والتحقيق . وركن ذلك الاستدلال ان العلل المتماثلة معلولاتها

ومن الموصلات الى العلة ان المعلولات تختلف باختلاف العلل شدّة وضعفًا وكثرة وقلّة فبشدة الضغط يشتد الانضغاط وبضعفهِ يضعف وبكثرة الاكسجين يكثر الاشتعال وبقلّتهِ يقل ومن ذلك نعرف العلة او المعلول . مثال ذلك انّا نرى اشتعال النار يزيد بزيادة الهواء الواقع عليها ويقل بقلتهِ فلا ريب ان في الهواء علة الاشتعال . وبمثل ذلك نتوصل الى ان ضوء الشمس من علة نمو النبات فانّا نرى ضوءها في الصيف اكثر من ضوئها في الشتاء ووقت اضاءتها في الاول اطول من وقت اضاءتها في الآخر . ونرى النبات ينمو سريعًا في حزيران وتموز ويكاد لا ينمو شيئًا في كانون الاول وكانون الثاني . واذا غرسنا علة نبتات من صنفٍ واحد في تربةٍ واحدة وعرّضنا بعضها لضوء الشمس وحجبنا بعضها عنهُ شيئًا كأن نغرسهُ تحت شجرة في تلك التربة وغرسنا بعضها في موضع لا يُنسَخ ظلهُ فيها رأينا المعرّض للضوء ينمو اكثر مما ينمو المحجوب عنهُ شيئًا وهذا ينمو اكثر مما ينمو المغروس في الظل الدائم

ومن الموصلات الى كلٍّ من العلة والمعلول ان العلة اذا اختلفت اختلافًا دوريًّا اختلف المعلول كذلك . وبهذا عرف ان علة اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر دوران الارض

حرارة الماء الى تلك الدرجة جمد

واذا قيل كيف ينشأُ الندى فرضنا في بادئ الراي لعهدنا بالمطر ان الندى ينشأُ نشوءه في الجوّ بقدر قليل فيقع على الاجسام قطرات ثم نرى بالاستدلال ان ذلك يقتضي تساوي اقدارهِ على مواقعهِ المتجاورة المعرّضة تعريضاً واحداً للجوّ فاذا تتبعنا المواقع رأينا الفرض غير الواقع فنرجع لمشاهدة ما يسبق الندى فنراهُ رطوبة الجو وسكونهُ وزيادة برد مواقع الندى على برد هوائها فنفرض انهُ ينشأُ على سطوح المواد بتبريدها ما يلاقيها من بخار الهواء فيجتمع عليها قطرات ماء فنرى باستدلال القياس المبني على هذا الفرض ان الندى يزيد بزيادة برد ما ينشأُ عليهِ فنرى الواقع كذلك . فان الندى يجتمع على الصوف الابيض اكثر مما يجتمع على الزجاج وعلى الزجاج اكثر مما يجتمع على الحديد لان الصوف احسن اشعاعاً للحرارة من الزجاج واقل ايصالاً لها منهُ والزجاج كذلك بالنسبة الى الحديد. ويلزم بذلك الاستدلال انَّ الندى يمتنع والجو غائم او يكون زهيداً لان السحاب يدرأُ حرارة الارض عن الاشعاع في الفضاء ويعكسها الى الارض فتفسد الندى في حال النشوء او لا تبقي منهُ الاَّ قليلاً وهو الواقع . ويلزم بهِ أنَّا اذا عرَّضنا

متماثلة او ان ما يحدث في حال يحدث في كل حال مثلها.
ومعرفة المماثلة عسيرٌ وتقتضي كلامًا يضيق بهِ المقام ونهاية ما بلغته
العقول من بيانها "ان الاشياء التي يعرف انها متشابهة في
صفات كثيرة يرجح انها متشابهة في اكثر من تلك الصفات"
ولا يخفى ما بين ذلك واليقين وما يقتضي الوقوف على الحقائق
من "استسهال الصعب وقطع بعيدات الشُّقَق" وبهذا يظهر تباين
الالباب في الادراك والانتباه اكثر مما يظهر في العلوم المدوَّنة
وبقي ان اوضح التوصل الى المطلوب استقراء بما ذكرتهُ من
درجاتهِ الاربع فاقول

اذا اردنا ان نعرف ما علة جمود الماء شتاء على أثر ريحٍ
وبرقٍ وبَرْد معين الدرجة فلو فرضنا انها الريح استدللنا بالقياس
انهُ ان كانت تلك الريح علة جمودهِ فهي تجمدهُ كلما هبَّت لان
العلل المتماثلة معلولاتها متماثلة ولكن كثيرًا ما هبَّ مثل تلك
الريح ولم يجمد الماء فهي ليست بالعلة . وكذا الامر لو فرضنا انها
البرق فنفرض انها ذلك البرد فنشاهد الماء يجمد عند
حدوث مثلهِ وفقَ ما يلزم من القياس ونكرر المشاهدة فنرى
النتيجة واحدة .ونأتي التجربة بأن نجعل درجة حرارة الماء كدرجة
ذلك البرد فنجد النتيجة كما ذُكِر فنتحقق ونحكم انهُ كلما هبطت

الطبيعي ركن تلك التغيرات وان كل ذلك مفعول المادة نفسها الى غير ذلك من الفروض الكثيرة التي بها قلت في مناهج الحكماء "آراء القوم مجموع فروض وتصورات واوهام" . وايقن ان النشوء الالهي على ما بينته في آخر المناهج ممكن لم يثبت وقوعه فهو مفتقر للتحقيق بالبرهان ودفع ما عليهِ من الاعتراضات

وقال "ام بأيّ قوة نسفته نسفًا وتركته قاعًا صفصفًا لا ترى فيهِ عوجًا ولا امتًا" . قلت الظاهر ان الضمير في قولهِ "نسفته" يعود الى "ما" في قولهِ "نقض ما شيد عليهِ" فالمعنى كسابقهِ وقد اجبته عليهِ سوى ان فيهِ زيادة النسف والضرس

وقال "بل كيف ساغ لك هدم ابحاث علماء الارض بالطول والعرض" . قلت لم يظهر لي ما اراد بمباحث علماء الدنيا أمجموع تلك الفروض ام كل قواعد العلوم المحققة فان كان الاول فنفيه ليس "هدم ابحاث علماء الارض بالطول والعرض" بل هو ابطال موهومات البعض . او ليس هو القائل في "حقيقتهِ" ان خصوم مذهب داروين كثيرون والقائل في "المحروسة" ان نفاة النشوء فرق تزيد على ثلاثة آلاف . او لا يحسب شيئًا من العلم لفرخو ودوسون واغاسيز وامثالهم من مشاهير العلماء واساطين الحكماء . ام قصر علوم الاولين والآخرين على

زجاجة فيها ثلج للهواء الرطب اجتمع عليها مثل قطرات الندى ويقع كذلك بالامتحان

وبهذه الاعمال الاربعة يتوصل الانسان الى كل مجهولٍ في الطبيعة مقدور لهُ التوصل اليهِ

ويجب ان يعلم هنا ان الفرض اذا خالف شيئًا من المحققات بطل والاَّ لزم نفي الحق اليقين بموهوم او مظنون وهو محال. واذا وافق قليلاً مما يلزم بالاستدلال ولم تتبين موافقتهُ او مخالفتهُ لسائرهِ توقف فيهِ واذا وافق كثيرًا من ذلك اللازم ولم تتبين الموافقة او المخالفة للسائر ظُنَّ او رُجِّح بحسب ذلك الموافق ودون ذلك لا مأمن من الخطإِ

فاذا فهم صاحبنا ما ذكرناهُ في هذه المقالة علم ان النشوء الذاتي لا يثبت الاَّ بتحقيق كل فروضهِ كالجوهر الفرد وانهُ ازليٌّ وان المادة الاولى بسيطة لا تأليف فيها الاَّ انها من جواهر فردة متماثلة في كل شيءٍ وان اجزاء العناصر اليوم ليست بجواهر فردة بل مؤلَّفة من تلك الجواهر الازلية وان الحياة نشأت لذاتها وانها ضرب من ضروب الحركة وان الحيوان نشأ من النبات وان الافراد تغيرت فنشأ عنها الانواع وان تلك الانواع تغيرت فنشأ عنها انواع أُخَر فصارت هي اجناسًا وان الانتخاب

لا يرويهِ ففي آجام افريقية فردوسهِ القديم . وفرة من الأبِّ والهشيم . والشثّ والطبَّاق . وكثرة من الحميم والغسَّاق

وقال "دع عنك هذه الوساوس فما كانت الحقائق لتطرَّس بترهات البسابس". قلت فات صاحبنا ان يستثني حقيقتهُ لانهُ "طرَّسها" بذلك

وقال "ذكر بعض ادباء اللغة مذهب داروين وقفّى عليهِ بما معناهُ انهُ مذهب باطل بالادلة العقلية والطبيعية". قلت قولهُ إني بعض ادباء اللغة فضلٌ لهُ عليَّ واحسانٌ منهُ اليَّ ان أَراد بهِ المدح ولكن مرادهُ ولسان حالهِ شاهد الايهام اني لست اهلاً لدعوى إبطال ذلك المذهب بتلك الادلة فالظاهر انَّ اديب اللغة عندهُ لا يحسن الكرّ في غير ميدان التصريف والاعراب وما شاكلها من المباحث اللغوية فكأَن احكام الانسان قواعد لغتهِ يوصد دونهُ ابواب المعقولات والطبيعيات . وما هذا الاَّ يسير من غرائب حكمتهِ التقليدية . قلت والحق اولى ان يقال اني من اول مطالعتي "حقيقتهُ" وجدتني لا استطيع ان اوفيهُ حقَّهُ في ذلك دفعاً لما يلزم منهُ التعظم فليفخر ما شاء على انهُ لو وجَّه كلامهُ هنا الى اعلم اهل الارض ما اجابهُ بسوى السكوت لما ذكرناهُ . ولكن يحسن هنا ايراد ما قصَّهُ عليَّ احد

شرذمة آمنت بمظنونات بخنر ودروين. وان كان الثاني فانا لم اهدم شيئًا من تلك القواعد. فعلى مَ تلك الدعوى العريضة وذلك التبلتع الطويل

وقال "العلّك ظننتها شذرات افكار فدفعتها بشذرات افكار لم تكلفك البحث الاَّ سواد الليل وبياض النهار". قلت ما ظننت تلك الفروض "شذرات افكار". ولا جواهر انظار. بل عددتها صور اوهام. واضغاث احلام. فطعنتها "باسنة الايمان. وذبحتها بقواطع البرهان". فالى مَ هذا التكرار "المقعّر". واللغو المكرّر

وقال "ثم قلت انك مشبعنا ولم تطعمنا الاَّ ضاهسًا ومروينا ولم تسقنا الاَّ قارسًا". قلت جاء في بعض كتب اللغة "لا اطعمهُ الله الاَّ ضاهسًا ولا سقاهُ الاَّ قارسًا دعاء عليهِ اي اطعمهُ النزر القليل من النبات فهو ياكلهُ بمقدم فيهِ ولا يتكلف مضغهُ. والقارس البارد اي سقاهُ الماء القراح بلا لبن". يقول اني وعدتهُ بالشبع ولم اطعمهُ سوى نزرٍ من النبات آكلهُ بمقدَّم فيهِ. ووعدتهُ بالريّ ولم اسقهِ الاَّ ماء قراحًا باردًا فهو لا يرويهِ. والحق اني لم أعِد طُفَيلَ الحقيقة بشيء من طعام المناظرة وشرابها. قبل ان جاء بحقيقتهِ لفتح بابها. وان كان الضاهس لا يشبعهُ والقارس

"ولنا على الارتقاء الدرويني اعتراضات كثيرة نقتصر على ثلاثة منها" (مناهج الحكماء الصفحة ٧ السطر ١٥ و١٦) وشتان بين حصر الاعتراضات في ثلاثة والاقتصار على ثلاثة منها ولكن هذا عند "ادباء اللغة"

وقال "اولاً انكر الارتقاء بدليل ان كثيرًا من الاحياء لم يظهر فيهِ شيءٌ من علامات التدرج. ثانيًا انكر الصور المتوسطة اللازمة في مذهب التسلسل. ثالثًا طول الزمان للانتقال من ادنى صورة الحياة الى ارفعها بالنشوء والارتقاء المنقوض بالابحاث الجيولوجية كما قال". قلت في ذلك تحريف كثير وخطأٌ في التعبير اما التحريف فبعضهُ في قولهِ اني انكرت الارتقاء بدليل ان كثيرًا من الاحياء لم يظهر فيهِ شيءٌ من علامات التدرج والصحيح اني قلت لم يظهر شيءٌ من تلك العلامات في احياء الارض لا في كثيرٍ منها وهذا قولي بلفظهِ "الاول ان في العالم ما لا يعد من الاحياء لم يظهر فيها شيءٌ من علامات التدرج في سلّم الارتقاء فبقاياها منذ الوف وربوات كثيرة من السنين لا تختلف عنها اليوم كما ثبت ذلك للجيولوجيين وغيرهم من علماء العاديّات" (مناهج الحكماء الصفحة ٧ السطر ١٧—٢٠) و "من" في قولي "من الاحياء" بيانيّة لا تبعيضيّة ولعلّ هذا ما يسوّغ

الاصحاب قال "حدثني احد العلماء الاعلام قال ما عجزت قط مثل عجزي عن جواب ما سألني فلان. قلت ما سألك. قال أأنت اعلم ام فلان وفلان كما تعهد نتفة. فقلت مازحًا ولماذا لم تجاوبهُ مثل مجاوبة الاخطل. قال وما قصة الاخطل. قلت سألهُ احد العظماء مَن اشعر الناس. فقال مَن في هذا الثوب مشيرًا الى ثوبهِ. قال ذلك لا استحسنهُ على انهُ يتأتى للانسان ان يمدح نفسهُ ويفتخر في بعض الاحوال"

وقال "قال بعد تعريفهِ لهُ ما نصّهُ ان ركن النشوء والارتقاء عند دروين — الانتخاب الطبيعي — وهو فرض بلا اثبات ورأْي من صور الوهم. اه". قلت ترك شيئًا من كلامي يبين ان مرادي بذلك ان جعل دروين الانتخاب الطبيعي ركن النشوء والارتقاء فرضٌ لم يأتِ بدليل لاثباتهِ ورأْيٌ لم يصدر الاّ عن وهمٍ كما بينّاهُ قبلاً ولو امكنهُ ان يثبتهُ ما توقف عن القطع بمذهبهِ ولم يبقَ فيهِ خلاف فان اثبات انَّ الانتخاب الطبيعي يجعل الافراد انواعًا والانواع اجناسًا هو اثبات النشوء والارتقاء الدرويِنيين اعينهما

وقال "ثم حصر اعتراضاتهِ عليهِ (اي على المذهب الدرويني) في ثلاثة". قلت في ذلك تحريفٌ بيّنٌ والصحيح اني اقتصرت على ثلاثة من اعتراضات كثيرة وهذا قولي بحروفهِ

الايجاز الذي التزمتهُ في المناهج

وقال "وفي كل ذلك من النظر ما يحتمل بحثًا طويلاً ربما ضاق عنهُ الكلام ان لم يضق صدر المقام فنجتزئ بذكر شيء من كليات هذا المذهب دفعًا للاعتراضات ومن تبقى عندهُ ادنى ريب نردهُ الى مطولات القوم". قلت صاحبنا لم يقتصر على ذكر كليات ذلك المذهب دفعًا للاعتراضات بل ذكر كلاًّ منها ودفعهُ على حدتهِ بغرائب الخبط والخلط ولعلهُ حين بلغ ما كتب هناك نسي ما قال هنا . اما قولهُ "وفي كل ذلك من النظر ما يحتمل بحثًا طويلاً" الى آخر هذا التجسيم فليس سوى التمويه على زمرتهِ الاغرار . واما قولهُ ومن بقي عندهُ ادنى ريب نردهُ الى مطولات القوم فمن مضحكات التوهيم والاَّ فليقل لنا في ايّ مطول أُثبت ان الافراد صارت بالتدرج انواعًا وان ما اردناهُ من الصور المتوسطة وُجد وان الزمن منذ نشوءِ الحياة على الارض اطول مما يقتضيهِ بلوغ الانواع الحيَّة اليوم الى طورها حسب مبادئ الارتقاء الدرويني لكي لا يبقى ادنى ريب عند من ردَّهم الى تلك المطولات. واما انا فاقول لهم اني طالعت تلك المطولات ومقالات كثيرة في ذلك المذهب في "جرنال أُف سينس" و"نولدج" و"ببلارسينس" وغيرها من جرائد

"لبعض ادباء اللغة" ان يكيم بهِ من تصدى لتخطئتهِ. واما قولهُ "ان كثيرًا من الاحياء الخ" فهو قول بخنر ومنقولٌ عنهُ ونقلهُ عن غيرهِ وحجّةٌ عليهِ وعلى دروين وسيأتي بسط الكلام عليهِ في الاعتراضات على الارتقاء. واما الخطأُ في التعبير فظاهر لصغار الطلبة وكان الصواب لو احسن النقل ان يقول بعد قولهِ "في ثلاثة" الاول ان في العالم ما لا يعد من الاحياء لم يظهر فيهِ شيءٌ من علامات التدرج في سُلّم الارتقاء. والثاني انهُ لو صحّ الارتقاء لوُجد في الارض اقرب الصور المتوسطة الى احدث الاحياء . والثالث ان بلوغ الانواع الحية اليوم الى طورها حسب مبادئ الارتقاء الدرويني يقتضي ان الاحياء كانت على الارض قبل ان تصلح الارض للحياة. (مناهج الحكماء الصفحة ٧ — الصفحة ١٠) وان بقي عندهُ ريب في ذلك فليراجع تلك الاعتراضات في المناهج ولا يتركها حتى يفهمها

وقال "وهي اهم اعتراضات خصوم هذا المذهب" اي ان اعتراضاتي الثلاثة اهمّ اعتراضات خصوم المذهب الدرويني . قلت ليس الامر كما قال . نعم ان هذه الاعتراضات قويةٌ لكن بقي اعتراضات كثيرة بعضها ليس دون هذه الثلاثة قوة وانما اخترتها لاني حسبتها اوضحها للعامة واولاها بالذكر في مقام

اي صاحب الخبط من اكبر خصومهِ واعدائهِ فاقول. قال دروين بأن للكون ربًّا وانا اتيقن ذلك وأرى اثباتهُ والمناداة بهِ من اعظم الفروض واما صاحب "الحقيقة" الوهمية فنفى ذلك وخطَّأ من قال بهِ . وقال دروين ان ذلك الرب خلق العالم وانا أُومن بذلك واما ذو الخبط فنفى الخالق والقول بالخالق وقال انهُ "نتيجة فلسفة موهومة" . ودروين لم يقل بالتولد الذاتي وانا من نفاتهِ واما مقلد بخنر فمن مثبتيهِ والقائلين لولا ذلك التولد لاقفرت الارض . ودروين خشي ان يخدعهُ التمثيل بأن قادهُ الى القول بأن الاحياء كلها من صورة واحدة وانا اقول التمثيل لا يفيد اليقين وقد يوقع في الخطإ المبين واما ذلك المقلد فيقول ويوكد بناء على المشابهات في الاحياء "انها كلها نشأت النشوء الدرويني عن مادة عريّة عن كل صورة وعن كل بناء معيّن" . ودروين لم يقطع بنشوء الانواع بتغير الافراد وانا لا اقول باثباتهِ واما هو فيهزأُ بمن لم يقطع بذلك ويقابلهُ بكل ضروب التهكم والتعيير . أَفيحسن بمن كان على هذا الخلاف للعلاَّمة دروين ان يرشق من لم يقطع ببعض مظنوناتهِ ما رشقني بهِ من سهام الملام والاهانة أَوَليس من انصاف العقلاء ان يُسمَّى ردهُ عليَّ بخبط العشواء في تخطئة مناهج الحكماء

العلم ولم اقف على ان احدًا اثبت ذلك بل لم اجد احدًا ولو من غلاة الدروينيين اتى بمثل دعاوي صاحبهم العريضة

وقال "ونحن لا نطمع بالفوز في طريق كهذا كثير العقبات". قلت لقد خالف كل ما قالهُ قبلاً بهذه العبارة في انهُ صدق بها واصاب ومن ادعى مثل ادعائهِ جديرٌ ان لا يطمع بفوز

وقال "وانما نقول كما قال الامام الغزالي ولو لم يكن في ذلك الاَّ ما يشككك في اعتقادك الموروث لكفى بهِ نفعًا فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة . اه". قلت لقد تمادى صاحب خبط العشواء في الطيش والكبرياء. فوَجَّهَ ما يصدق عليهِ بعينهِ. الى من شكّهُ خير من اعتقادهِ وظنّهُ اصحُّ من يقينهِ . والا فمتى بلغ من أمر المقلدين . ان يشككوا ارباب النظر والحق اليقين. فلا حول ولا قوة الاَّ بالله رب العالمين

هذا ما اخترتهُ ردًّا على ديباجة ليث العرين فعسى ان يشبعهُ ويرويهُ فلا يجوع بعدهُ "لضاهس" ولا يظمأُ "لفارس"

ولا بدَّ قبل الرد على ما يلي ديباجتهُ من ان ابيّن لهُ اني على مخالفتي دروين في بعض مظنوناتهِ صديق لهُ وانهُ هو

هذه الفرقة الى اثنتين ظنت احداها الانسان ابن القرد او صنوهُ. ومنها دروين. وقالت الاخرى بأن الله خلق الانسان من البدء انسانًا ومنها العلاّمة ولاّس. وعلماء هذه الفرقة اصحاب النشوء الالهي الذي قلت بامكانهِ وصرحت بعدم البرهان على وقوعهِ وبأن عليهِ اعتراضات لم تدفع دفعًا مقنعًا. فالمراد بكلٍ من النشوء والارتقاء في هذا الباب غير معناهُ اللغوي فالنشوء في العربية الحدوث والتجدد والارتقاء فيها الصعود. والاول في الانكليزية وهي لغة دروين development ومعناهُ تدرُّج او تقدُّم في سلسلة تغيرات بالتدرُّج. والثاني فيها evolution ومعناهُ نموٌّ او نشوءٌ كنشوء الزهرة من البرعم فهو مثل الاول او يقرب منهُ كثيرًا ففي تسمية ذلك المذهب بالنشوء والارتقاء ابهام والتباس فكلٌّ منهما بمعناهُ اللغوي امرٌ لا ريب فيهِ وهو محقق في الجماد والنبات والحيوان. وبيانهُ في الجماد ان المركبات تنشأُ باتحاد البسائط ومثلهُ كثيرة فُصّلت في المطوّلات الكيمية. وهو في النبات والحيوان اظهر من ان يُبيَّن فالشجرة تنشأُ من بزرة والانسان من بيضة وكل ذلك بفعل ذي القدرة والحكمة الازلية. فالاولى ان يُسمَّى بتنوُّع الافراد الى ان نقف على كلمة ادل منهُ على المراد. ويمكن دفع الالتباس بتقييد النشوء او الارتقاء بالدرويني

الفصل الثاني

في مذهب دروين وان لا برهان على صحتهِ

ذهب العلاَّمة دروين ولم يقطع بما ذهب اليهِ ان الخالق بدأَ الحياة في صور قليلة او صورة واحدة تغيرت افرادها فصارت انواعًا (اصل الانواع لدروين الصفحة ٥٧٧) وان الانسان لم يخلق انسانًا بل نشأَ من حيوان ادنى منهُ وبلغ ما هو عليهِ بالتغير على توالي القرون وانهُ والقرد من اصل واحد وسموا هذا المذهب بالنشوء والارتقاء. وكثيرًا ما يقتصرون على احدهما فيقولون مذهب النشوء او مذهب الارتقاء . وسبق دروين الى ذلك قوم وتبعهُ غيرهم وخالفهُ بعضهم في عدة اصول يطول بيانها وللاختصار قسمت اصحاب ذلك المذهب في "مناهج الحكماء" الى ثلاث فرق المعطلة واللاأَدرية والالهية. اما المعطلة فهي التي نفت الخالق سبحانهُ وقالت بقدم المادة ومن مقلديها صاحبنا مؤَلف الحقيقة الخبطيَّة . واما اللاأَدرية فهي التي لم تتعرَّض لنفي الخالق ولا لاثباتهِ . واما الالهية فهي التي اعترفت بالواجب تعالى وقالت بأَنهُ خلق المادة والحياة وانقسمت

(شرح مختار لمذهب دروين ترجمة صاحبنا صفحة ١٠ و١٢) فنفاهُ البعض وظنّهُ البعض ورجّحهُ الآخر ولكن كلهم باتفاق على ان ليس من برهان على القطع بهِ . وقد بذلوا كل ما في وسعهم ليولّدوا انواعًا جديدة بالانتخاب الصناعي فلم يستطيعوا . وكل عاقل اذا اعتزل الهوى يتوقف في كل دعوى لا برهان على اثباتها ولا دليل على نفيها فما قولك بفرضٍ لم يثبت ببرهان وعليهِ اعتراضات كثيرة لم تدفع دفعًا مرضيًّا

وقد صرّح اكثر القائلين بذلك الفرض بأن لا برهان على صحتهِ ومنهم دروين نفسهُ (تسلسل الانسان مجلد ٢ صفحة ٣٨٧) والاستاذ هكسلي (خطب عاميّة صفحة ٣٢٦). وان لم يصدّق مخطّئ المناهج بعد كل ما قلتهُ فليأتِ ببرهانهِ فأُومن بآياتهِ واضمن لهُ ان يجمع العلماء على ان ينسبوا النشوء اليهِ فيسمّى "الحقيقة البَطَليّة" بدلاً من "الرأي الدرويني"

وما اتصوّرهُ اذا وقف على هذا الكلام الاَّ قائلاً وهو يهزأُ بي ويفترّ تيهًا ويهتز عجبًا "ما اغفل صاحبنا أَفلم نأتهِ في "حقيقتنا" بدل الدليل بأدلّة ام معدتهُ لم تقوَ على هضمها كما لم تقوَ على هضم غيرها من امثالها" (الحقيقة صفحة ٦٠) فاتركهُ هنا على عرش جبروتهِ والتفت الى تلك الادلّة لعلّي اعثر فيها على ذرّةٍ من

اذا أُريد بهِ مذهب دروين الخاص وبالمادي او الذاتي اذا أُريد بهِ مذهب المعطّلة او اللاأدريّة

والذي ساق بعض العلماء الى القول بنشوء الانواع الحية من تغير الافراد امور في الاحياء لم يعرفوا عللها كاختلاف افراد النوع الواحد في المشخصات واعضاء لم يعرفوا فائدتها كالغدة الدرقية ومشابهة بعض الاحياء لبعض ولاسيما تشابه الجراثيم والاجنّة فما بقي الآن يعترفوا بجهلهم تلك العلل او ان يفرضوها جريًا على اعمال الاستقراء في استنباط العلوم كما مرّ بك . ولكن بعض المقلدين اتخذ تلك الامور ادلة على النشوء الدرويني او النشوء الذاتي بدل ان يتخذهُ فرضًا لبيان علتها مع اعترافهِ بأنّهُ فرض

قال صاحبنا في الفصل الاول من ردهِ عليّ بعد ان ذكر التغير والاعضاء التي لم تُعرَف فائدتها "ووحدة الناموس الرابط الاحياء بعضها ببعض" ما نصّهُ "فقام في ذهن بعض المحققين انهُ ربما كانت الاحياء كلها من مصدر واحد متكونًا بعضها من بعض متحولاً بعضها عن بعض" على انهُ قد تقضّى على العلماء سنون كثيرة في البحث عن صحة ما "قام في ذهن ذلك البعض" ونظر فيهِ اعلم الطبيعيين منذ نحو مئة سنة الى اليوم

والغزال قردًا . وكون الولد كوالدهِ في الحقيقة أمرٌ ثابتٌ بالمشاهدة وقانون من قوانين البيولوجيا (سيكلوبيديا جنسن الجديدة العامّة مجلد ١ صفحة ٤٩٣) . ولكن ذلك لا يلزم منهُ أن يكون الولد بلا مشخّصات او صفات تميزهُ عن والدهِ . على انهُ قد يحدث ان بعض تلك المشخصات يبلغ حدًّا بعيدًا بأن ينتقل من الوالد الى ولدهِ ومن هذا الى سلالتهِ ثم يزول باختلاف الزوجين فيهِ واذا اقترن اصحاب المشخصات المتشابهة على توالي العصور نتج من ذلك ما يُعرَف عند علماء اوربا بالتباين وعند مناطقتنا بالصنف وقد وقع ذلك بالتجربة او الانتخاب الصناعي وهو نهاية ما ثبت من امر اختلاف الافراد . فذلك الاختلاف ليس ببرهان على صحة النشوء الدرويني لان كل فرد من افراد صنوف النوع لهُ حقيقة هذا النوع فكلٌّ من الزنجي والرومي والمغولي وسائر الاجيال انسان وقس على ذلك افراد الصنوف في سائر الانواع

ويحسن هنا بسط الكلام على ذلك التغير بايراد اقوال العلماء ولا سيما ائمة النشوء وبيان ما يترتب على ما حققوهُ وما هو الواقع فاقول

قال المستر دروين ونقلهُ عنهُ الاستاذ بخنر في المقالة

الدليل الاول

قال صاحبنا في فصلهِ الثاني ما خلاصتهُ "الافراد تختلف بتنازع البقاء والانتخاب الطبيعي وينتقل الاختلاف بالوراثة الى ان تصير الافراد انواعًا". قلت لا ريب في ان كل فرد يختلف عن غيرهِ من افراد نوعهِ بصفات عرضيَّة هي المشخّصات والّا ما امكن التفريق بين اشخاص النوع الواحد. والواقع ان كلّ فردٍ في العالم يمتاز عما سواهُ اي ان كل اثنين غيرانِ ابدًا ولكن لا دليل على ان تلك العرضيّات تصير ذاتيّات او انها تزيد على نسبة يخرج بها الفرد عن حقيقتهِ النوعيَّة. فما اتخذهُ صاحبنا دليلاً على صحة دعواهُ هو الدعوى عينها. فان قال يمكن ان تزيد تلك المشخّصات على مرّ الدهور وتنتقل بالوراثة الى ان تخرج مشخّصها عن الحقيقة النوعيّة قلت المطلوب اثبات الوقوع لا الامكان فقطعهُ بالوقوع من باب النبوءة التي لم يأتِ بآيةٍ او بيّنةٍ عليها ونحن ننكرها عليهِ. على ان الوراثة هي التي تثبت بها حقائق الانواع مع اختلاف المشخّصات فلو لم يرث الولد من الوالد الحقيقة النوعيّة عمّ التشويش الاحياء فامكن ان يلد الفيل حصانًا

يعرض لها منذ الوف من السنين ادنى تغيّر يُعتدُّ بهِ ولا في اقليمها ولا في سائر احوالها الخاصّة فلم تتغيّر نباتاتها ولا حيواناتها ولا اناسها"

وقال العلاّمة صموئيل كنس ما ملخصهُ انهُ يعتقد ان كل صنوف الكلاب من اصل واحد وان اصل صنوف التفاح المختلفة تفاحة يظنها ادنى اشجار التفاح المعروفة لعدم الفلاحة التي تحسن كل انواع النبات وان ناموس التغيّر من آلاء العناية الالهية لابهاج النظر والنفع في الاعمال وانهُ بناء على ذلك يوافق درون في بعض تعاليمهِ لكنهُ يخالفهُ في بعضها. فانهُ يرى الطبيعة والوحي في وفاق على انَّ الانواع خلق خاصٌّ واورد على ذلك الدليل تاركًا القارئَ وشأنهُ فيهِ

وخلاصة دليلهِ ان في كل طبقات الارض المختلفة من الكمبريّة وصاعدًا بقايا كثيرة من الحيوانات والنباتات التي عاشت وماتت في العصور الخالية لا شيء منها يثبت مذهب درون بل يناقضهُ (موسى والجيولوجيا صفحة ٢٥٩ الى ٢٧٣). وقد وقف على هذا الكتاب ونظر في ادلتهِ قبل طبعهِ وذلك منذ ثلاث سنين اكثر من خمس مئة وثلاثين من العلماء والاطباء مع سعة علم مؤلفهِ وفضلهِ . ومن جملة ما اعجبني فيهِ قولهُ في اولهِ

الاولى من شرحهِ "الاحياء مائلة الى التغير على اوجه مختلفة وحدٍ محدود". وقال بخنر في تلك المقالة ما خلاصتهُ "هيكل يرى ان الانواع تختلف في قبول التغيير فبعضها متغير كثيرًا وبعضها ثابت وبعضها متغير الى حدٍّ محدود". وقال الرئيس العلاَّمة مكوش في مقالةٍ لهُ في النشوء "يمكن النشوء ان يحدث تغيرات ذات شأن في النوع اما بطبع النبات او الحيوان واما بالاحوال الخارجية وهو بها اشدُّ تأثيرًا فالكلب يتبع بالتعويد الرعيَّة ويأتي بالصيد ويدل عليهِ والمرجح ان اليمام اصل الصنوف المختلفة من الحمام والمظنون ان الورد كلهُ من الورد البرّي (dog rose) وهذا يبين امكان حدوث الصنوف بالارتقاء لكن تلك الصنوف اذا تُركت وشأنها مالت الى العود الى صورة النوع الاصلي". وقال في تلك المقالة عينها "العلم يظهر لنا ثبوت الحقائق فالممالك والرتب والاجناس لها مميزات معيَّنة واستمرت بلا تغيّرٍ على مرّ قرون لا تحصى"

وقال بخنر في المقالة الاولى من الشرح "وربما لم يتضح الانتخاب الطبيعي فيوهم الخلاف كما في الاماكن التي لا تتغير فيها احوال الحياة الخارجية كالاقليم والتربة والقوت والهواء واقسام اليابسة والمياه مثل بلاد مصر فانها لموقعها الجغرافي لم

١	الانواع التي لم تتغير	٣٨ في المئة	
٢	الانواع المهاجرة	٠٧ " "	
٣	الانواع التي نشأت بالتغير	٠٠ " "	(اي لا شيء)
٤	الانواع الجديدة		
	التي لا سلف لها	٦٥ " "	
	المجموع	١٠٠	

(برنستون ريفيو سنة ١٨٨٠ صفحة ٢٩٧)

وقال بجنر في المقالة الرابعة من شرحهِ مذهب دروين والنقل من الترجمة "التقدم في التغيّر نتيجة غالبة لا لازمة وقد ذكرت شاهدًا على ذلك الاصول الباقية على حالها للحيوانات البحرية الدنيا فانها لم تستفد شيئًا بالانتخاب الطبيعي او استفادت شيئًا لا يذكر لشدة بساطة تركيبها ولاستواء احوال الاشياء التي من خارج وقلت ان الانتخاب الطبيعي قد تكون نتيجتهُ في بعض الاحوال تقهقرًا لا تقدمًا وفي وسعي ان اضيف الى ذلك ايضًا بعض طوائف من الحيوانات الدنيا خاصّة كانت في الاصل اعلى تركيبًا واكثر تغيرًا منها اليوم"

وقال في المقالة الاولى بعد الكلام على حيوانات الطبقة اللورنزيّة ما خلاصتهُ "ولا يزال كثيرٌ من هذه الحيوانات في

"طالع الطبيعة انّ الطبيعة حليفة الحقّ"

وابهج ما رأيت للعلاّمة دوسون ان برّند احد ايمّة الجيولوجيا بذل جهدهُ في ان يزيل الريب في مذهب دروين بالمباحث الجيولوجيّة فعاد من المنكرين. واحسن ذلك العلاّمة ما شاء بقوله "برّند كغيرهِ من اكابر البلينتولوجيين الذين حرموا الايمان ببشرى النشوء الحديث مع انهُ بذل كل العناية في دفع ريبهِ وفاق بمداومة البحث كثيرين من دعاة تلك البشرى" (برنستون ريڤيو سنة ١٨٨٠ صفحة ٣٩٦)

وموجز ما كان من العلاّمة برّند انهُ بحث في صخور الطبقة السيلوريّة في بوهيميا ليرى ما فيها من الانواع التي لم تتغير وما نشأت عمّا قبلها بالتغير والانواع التي هاجرت اليها والانواع الجديدة التي لا سلف لها فبحث عن ذلك في اربعة عشر تكويناً متواليًا في تلك الطبقة فوجد فيها ٦٤٠ من انواع البرشيوبود (اي الذراعي الرجل وهو حيوان صدفي) فمعدل ما لكل تكوين نحو ٤٥٧١ وكانت نتيجة كل ذلك البحث ما تراه في هذا الجدول وهو الذي وضعهُ على هذه الصورة

فلنا بناء على الواقع وما تحققهُ اولئك العلماء وغيرهم بقطع النظر عن آرائهم تاركين الفروض والاوهام لمن شاء القواعد الآتية في التغير

الاولى ان كل اثنين غيرانِ اي ليس في العالم اثنان متماثلان في كل شيء

الثانية ان افراد النوع قابلة ان تكون بالتغيُّر صنوفًا

الثالثة ان التغير يختلف في الافراد قوةً وضعفًا وسرعةً وبطوءًا

الرابعة ان التغير قد يكون صعودًا او تقدمًا وقد يكون هبوطًا او تقهقرًا

الخامسة ان المتغيرات مائلة الى الرجوع الى الاصل

السادسة ان التغير محدود

السابعة ان من اسباب تلك التغيرات الانتخاب الطبيعي والاحوال الخارجية

ولنا بناء عليهِ هذه القضايا التي لا ريب فيها

الاولى انهُ لم يثبت قط ان شيئًا من الانواع نشأ من تغيّر الافراد او ان شيئًا من الانواع خرج بالتغير عن حقيقتهِ

الثانية ان مكتشفات البليئتولوجيا تنافي القول بثبوت

قعر البحر ولم تتغير منذ ظهرت الحياة الى اليوم"

وقال في تلك المقالة عينها "فالعلماء ولا سيما علماء الانكليز الذين بحثوا كثيرًا في هذه المسئلة منقسمون الى قسمين اصحاب مذهب الانتقال (اي خروج الفرد عن حقيقتهِ النوعيّة بالتغير) واصحاب مذهب التقدم (اي الصعود بالتغير) فمن القسم الاول من ينكر التقدم ومن القسم الثاني من ينكر الانتقال ومثل هذا الخلاف حصل بين العلماء في المانيا"

وقال اوطو فلجر ما خلاصتهُ "يحصل تقدم في بعض الاحوال ويحصل تأخر في الآخر ويظهر ان الصور العليا تتعاقب مع الصور الدنيا غالبًا بلا قانون ظاهر فيحصل تجدد دائم في الصور لا يعلم ناموسهُ وليس من ناموس عام للنمو الصاعد" (الارض والازل سنة ١٨٥٧)

وقال الدكتور موهر ما خلاصتهُ "التقدم والتأخر في العالم العضوي متعادلان في الكل فالتقدم الى الابد وهم" (تاريخ الارض سنة ١٨٦٦)

وقال بخنر في المقالة الاولى من الشرح ما خلاصتهُ "ذهب دروين الى ان الغالب انّا لا نعلم شيئًا من امر نواميس التغير ولا نستطيع سوى ان نقطع بوجودها"

واحدة نفخ فيها الخالق نسمة الحياة وعلى مذهب بخنر واحزابهِ من تغير ازلي هو الجوهر الفرد أفيجب ان يثبت المحدث ويتغير الازلي . فقول بطل دروين نافٍ لكل انواع النشوء والارتقاء لا لخلق الانواع الخاص . أفرأيت من يضرب نفسهُ بسيفهِ وهو يبغي النصر كصاحبنا أسد الحقائق

هذا وبقي في النفس شيءٌ من امر ذلك التغير اذكرهُ بما يمكن من الايجاز في هذه المقالة

المقالة الثانية

في التغير

لا ريب في ان كل ما في الكون من مادة متغيّر فكل ذرّة من ذرّات الهباء وكل جرم من اجرام الارض والسماء محلّ التغيرات في الهيئات والحركات وسائر الاعراض والتغير التحول من حال الى حال لا التلاشي او استحالة الذوات بأن يصير الحديد مثلاً اكسجينًا والعوسج عنبًا والبوم هزارًا

ولا بدّ لكل تغيرٍ من مغيّرٍ وهذا مما اثبتهُ العلم وقطع بهِ العقلاء حتى الماديون . فان الاجرام السماوية عند جمهور العلماء

ذلك النشوء او الخروج وسيأتي زيادة ايضاحٍ لذلك في الاعتراضات على نشوئهم

الثالثة أنّا لا نزال نجهل كثيرًا من قوانين التغير

فان قيل ما غاية هذا التغير ان لم يكن التنوع . قلت الذي علمناهُ نشوء الصنوف لابهاج الحواس والنفع في الاعمال الا فيهِ من فوائد التحسين على ان علم معرفة الغاية الحقيقية لا يثبت الغاية الفرضيّة

وبقي قول صاحبنا في الفصل الاول "وهذا كلهُ (يعني التغير والاعضاء الكثيرة التي لا فائدة لها في الحال على قولهِ ووحدة الناموس الرابط للاحياء بعضها ببعض) يجب ان لا يكون في مذهب الانواع الذي يقتضي ان تكون ثابتة". قلت هو ينفي الانواع الاصلية فكيف علم وجوب انها لا تتغير فهل استقرى احوال الانواع وهي لم تخلق واثبت لها تلك الصفة انّ هذا ما لم يأتهِ قبلهُ بطل مجرّب ولا جبان ولم يدّعهِ انس ولا جان. وهل من صفات المحدَث وجوب ان لا يتغير تغيرًا لا يخرج بهِ عن حقيقتهِ بل العقل لا يمنع امكان ان يخرجهُ الخالق عن تلك الحقيقة وهو ركن نشوء الالهيين . اوليس كل الانواع الحيّة نشأت على مذهب درون بتغير بضع صُوَر اصليّة او صورة

الامور اشكالاً . لكنّ بعض الاشكال زال بالانتخاب الطبيعيّ وتأثير الاحوال الخارجية كما عرفت وتباين الوالدين وعوارض التكوين الجنيني كما ستعرفهُ

بقي ان بعضهم ذهب الى ان هذه التغيرات تظلّ تزيد الى ان يخرج بها الفرد عن حقيقتهِ النوعيَّة وقد علمت انهُ لم يقم على ذلك برهان . فان قيل وما البرهان على ان الفرد لا يخرج بها عن ذلك . قلنا ان لم نستطع اقامة هذا البرهان بما لنا من العلم اليوم لزم التوقف بالأمرين فليس للقائلين بذلك الخروج ان يقطعوا بثبوتهِ وليس لنا ان نقطع ببطلانهِ . ولكن على القول بالاول اعتراضات قويَّة لا شيء منها على القول بالثاني على ان لي في ذلك ما اذا ثبت ابطل الاول قطعاً . والكلام عليهِ يطول كثيرًا فاذكرهُ هنا بما امكن من الايجاز وللقارئِ اللبيب ان يحكم لنفسهِ بما شاء من السلب والايجاب فاقول قد تبين للعلماء ان التغيُّر محدود وقد مرَّ اثبات ذلك وانهُ اذا تركت الصنوف وشأنها مالت الى العود الى صورة النوع الاصليَّة ولهذا ولغيرهِ أرى ان تلك المشخصات تختلف في الافراد والصنوف اختلافًا دوريًّا مختلفًا اي ان لكلٍّ منها ادوارًا مختلفة في المدَّة والسرعة والبطوء باختلاف الاحوال فيزول بعضها بعد عقب

اليوم على اختلاف مذاهبهم كانت في اول امرها غبارًا في الفضاء تتوقد في باطن السماء ثم بردت بالاشعاع على كرور السنين والادهار ومنها ارضنا وهي لما بَرد سطحها ظهر برها ثم ارتفعت جبالها وتغيَّر وجهها تغيرات غريبة لوفرة العلل التي لا تنفك تؤثّر فيها على مرّ الثواني. فدولاب الكون والفساد (وهو على ما في التعريفات زوال الصورة عن المادة بعد ان كانت حاصلة) لم يسكن منذ كانت الهيولى الى هذه الساعة ولن يسكن الى ما شاء الذي لا حركة ولا سكون الاَّ بامرهِ واختيارهِ. وعلل التغير حلقات سلاسل كلٌّ منها علة لما بعدهُ ومعلول لما قبلهُ وعلة الكل الواجب المختار سبحانهُ وتعالى

ومن الادلة على تسلسل العلل سير الارض حول الشمس فبهِ تتعاقب الفصول فتختلف الازمنة حرًّا وبردًا فتنشأُ الابخرة وتتكون السحب وتقع الامطار وتجري الانهار وتنفجر الينابيع وتنبت الارض فتنمو الاحياء الى غير ذلك من الحوادث التي تضيق بوصفها الصحف. والمقصود من البحث هنا تغيرات افراد النوع او المشخّصات التي يتميز بها كلٌّ من تلك الافراد عن الآخر مع ان القاعدة ان يماثل الولدُ والدهُ لما تقتضيهِ الوراثة التي غايتها حفظ النوع. ولهذا كانت تلك المشخصات من اغرب

الى البداءة في نتاجهِ وهو العمدة في دوران تغيُّر الافراد . ومن امثلة الأوَّل ان الصخور تتفتت فتصير رمالاً تذريها الرياح وتجرفها السيول فترسب في مصابها او مجاريها فتعود صخوراً . والبسائط يتركب في الطبيعة بعضها مع بعض ثم تنحل راجعة الى اصلها ثم تتركب وهكذا الى ما شاء الله . وبعض العناصر يتناولهُ النبات فيمثلهُ فيكون نباتاً ياكل بعضهُ الحيوان فيمثلهُ فيصير حيواناً ثم ينحل النبات والحيوان فترجع عناصرها الى ما كانت عليهِ ثم تتركب وهكذا تتغير تغيراً دوريًّا على مرّ الدهور . وبعض الارض كان واديًا ارتفع فصار سهلاً ثم جبلاً ثم لعبت بهِ قوات الطبيعة فعاد سهلاً فواديًا . وكثيرًا ما كان بعض البرّ بحرًا وبعض البحر برًّا وعاد كلٌّ منهما الى ما كان عليهِ

ومن امثلة الثاني ان الشجرة كانت بزرة افرخت فاحقلت فتكوَّنت ونمت الى ان صارت شجرة فانتجت بزرًا عادت فيهِ التغيرات الى ان بدأَت دورها . ومنهُ ان هذا الحيوان كان بيضة لقحت فصارت علقة فمضغة الى ان بلغ الكمال ثم عاد ذلك التغير الى بداءتهِ في بيوضهِ . ومن غريب امثلة هذا تغيرات الضفدع والفراش والبعوض وكثيرٍ من الحيوينات

ويحسن هنا ذكر ما علمتهُ بالمشاهدة والامتحان وهو اني

او عقبين او اكثر ثم يعود فان زالت علته زال من نوعهِ وان بقيت دار بدورانها ويجد في الخلف ما ليس في السلف ويجري في مثل ذالك السنن وهلمّ جرّا على توالي الاعقاب فتدوم المشخصات ما دام النوع ولا تخرج بالفرد عنهُ . ولو انتقلت كل مشخصاته السلف الى الخلف مع الزيادة المتوالية لكان الفرق بين الفرد في الحيوانات القصيرة الاعمار وعقبهِ بعد عشرة آلاف سنة مثلاً كالفرق بين الفيل والبعوضة وهو خلاف الواقع فان اقدم ما عُرِف من بقايا الاحياء اليوم لا يختلف عنها بسوى المشخصات فالفرق بين كل فرد من تلك البقايا وكل فرد من احيائها في هذه الايام كالفرق بين فردين حيين من نوعها . هذا وما قلته في امر ذالك الاختلاف وفق الواقع فانك لا ترى في الولد كل اعراض الوالد وترى فيهِ ما ليس من اعراض والدهِ وليس عليهِ شيءٌ مَّا على مذهب دروين من الاعتراضات وامثالهُ كثيرة في الطبيعة خلافًا لذالك المذهب فانهُ لم يثبت قط ان شيئًا من الانواع استحال الى غيرهِ واما التغيرات الدورية فاكثر من ان تُعدّ . وهي تدور في التكوين والحركات وسائر الأعراض إمَّا في محلّها وإما في عقبهِ اي انها تبتدئ دورها ثم ترجع الى بداءته في الشيء الواحد او تبتدئ الدور في شيء وترجع

الاذهان

ومن التغيرات الدوريّة مبادرة الاعتدالين اي انتقال نقطتي تقاطع دائرة البروج وخط الاستواء وقدر ذلك كل سنة خمسون ثانية وخُمْس ثانية فيكون دور تلك المبادرة نحو ٢٥٨١٧ سنة ومنها تغير الكَلَف الشمسي فانهُ يزيد وينقص على التوالي ومن معظم زيادتهِ الى معظمها نحو احدى عشرة سنة تقريبًا ومن بدء زيادتهِ الى نهايتها نحو ثلاث سنين ونصف سنة ومن بدء النقص الى نهايتهِ نحو سبع سنين ونصف سنة على ان الراصدين اختلفوا في ذلك قليلاً

وامثال ذلك لا تحصى ولكن لا مثال على نشوء دروين فان لم يرجح صاحبنا من كلّ ما بينّاهُ ان تغيرات الافراد دورية فاقل ما يجب عليهِ في شرع العلم ان يسلم باحتمال انها كذلك وحينئذٍ يبطل استدلالهُ فاني لا اخالهُ يجهل انهُ "اذا وقع الاحتمال بطل الاستدلال"

ومما يقوي القول بالتغير الدوري غير ميل الصنوف الى العود الى اصولها وما عرفتهُ في ما مرّ ناموس العود الى الجد المسمّى عندهم بالأتفزم (atavism) وأَصلهُ atavus من اللاتينية. ولا ريب في ان المعلول يتغير بتغير العلّة فاذا كانت

زرعت بزور منثور فنبتت ونمت وازهرت فكان زهرها في اول الامر بنفسجيًّا ثم اخذ يميل الى الحمرة فصار احمر ثم شاب حمرتهُ بياض ثم صار ابيض فجمعت كلًّا من بزور الازهار المختلفة على حدتهِ وبذرتهُ كذلك فلمَّا نبت الجميع وازهر كان الزهر كلهُ بنفسجيًّا ثم اخذ يتغير كما ذُكِر. على اني لا اقطع ان هذا نهاية تغيرهِ لاني لم امتحن ذلك سوى مرتين فيحتمل ان هنالك تغيرات اخرى زهيدة طويلة الادوار تخرج بهِ الى ابعد من ذلك ثم يعود بعضها عند نهاية دورهِ ويبقى الآخر الى ان يكمل دورهُ فيستمرّ التغير دائرًا الى ما عُيّن لهُ ولكن ما ذكرتهُ من امرهِ وافٍ ببيان التغير الدوري

وابان لنا التاريخ التغير الدوري في تقدم الممالك وتاخرها في الفنى والعلوم والآداب. وهذه حركات الكواكب كلها دوريَّة وادوارها تختلف اختلافًا دوريًّا . فحركة القمر اليوم اسرع منها قديمًا وميل دائرة البروج اقلّ مما كان في زمن ارسطاطاليس. فنظر في ذلك وامثالهِ العلاَّمتان لكرنج ولبلاس وبيَّنا بالبرهان ان لكلٍّ منها حدًّا اذا بلغهُ عاد شيئًا فشيئًا الى ما كان عليهِ . وهذا من بعض الادلة على الحكمة الازلية فانهُ لو لم يكن ذلك التغير دوريًّا تشوش نظام العالم وخرب خرابًا تعجز عن ادراكهِ

طباق الارض الجيولوجية . وخلاصة مذهبهم ان كل شيء يتحرك في دائرة ابدًا وان هذا التغير منذ الازل وعلى ذلك انكروا دوام الارتقاء وحكموا انهُ من متصوَّرات الوهم . وقال بعضهم بتنوع الافراد ولا يخفى الفرق العظيم بين قولي وقولهم

ومن تغيرات الافراد ضمور بعض الاعضاء وضعفهُ لقلَّة الاستعمال ونمو بعضها وقوتهُ المزوالة فليس ما يسمونهُ بالاعضاء الاثريَّة بدليل على نشوء الانواع من تغير الافراد . وبهذا ترى سخافة قول صاحبنا " لو كانت الانواع نتيجة خلق خصوصي لما اقتضى ان يكون فيها شيء من الاعضاء المسماة اثريَّة " وهل يقتضي الخلق الخاص ابطال الشرائع الطبيعية ومنع تغير المحدثات ان هذا من اعجب ما خبط الخابطون . وكيف بلغت مداركهُ ان ينفي تغير المخلوقات الخلق الخاص وهو لا يقول بذلك الخلق ولا بمخلوق بهِ ليشاهدهُ ويحكم بعدم تغيرهِ . هذا والانسان عاجز عن علم كل العلل انما في طاقتهِ ان يعلم ان الله هو علَّة العلل وانَّهُ بكل شيء عليم

الدليل الثاني

اورد صاحبنا دليلهُ الثاني في الفصل الثالث الذي سماهُ

العلّة دوريّة تغيرت معلولاتها كذلك كما عرفت في المقالة الاولى فحركة الارض حول الشمس دوريّة فتختلف بذلك الايام والفصول دوريًّا وحركة القمر دوريّة فيختلف المد والجزر كذلك ومعظم مغيّرات الاحياء احوال الحياة كغزارة القوت وقلتهِ وحسن المسكن وقبحهِ والحرّ والبرد وصفات الاعمال وامثال ذلك وكلها على ما ظهر متغيّرٌ تغيّرًا دوريًّا وعلى هذا لاتدوم الاحياء في تقدم ولا في تأخر ولا في صعود ولا في هبوط

وقد عرفت ان ادوار التغير تختلف في السرعة والبطوء والمُدَد وهذا من بعض الادلة على ان ما لهُ بداءة لهُ نهاية وقد انقرض كثير من انواع النبات والحيوان وصنوفهما وآثارها شاهدة بذلك المصاب العظيم . فلا يمتنع ان تعود الارض غبارًا في الفضاء كما كانت في اول امرها . وللخالق الازلي ان يبقي ما شاء ويفني ما شاء وهو على كلِّ شيءٍ قدير

وقال بعضهم بالتغير الدوري قبلاً لكن على غير هذا النمط وتجاوزوا بهِ حدود الواقع وخالفوا المحققات العلمية وتوغلوا في اودية التخيلات والاوهام فقالوا بازليّة الارض واحوالها وكل ما فيها وبان تغيراتها كذلك وان كلاًّ من ادوارها عودٌ على بدء وعلى ذلك قالوا لاغرابة في ان تكون الآثار البشريَة في اقدم

بينهما الاَّ انهُ رأَى ان الصنوف انواع في حال النشأَة والانواع صنوف تامّة الوضوح . وهذا ما نقلهُ عنهُ مجنز في المقالة الاولى من الشرح ونصّهُ بترجمة تلميذهِ "فالتباينات على رأْيهِ (اي رأْي دروين) انواع في حالة البدأَة والانواع تباينات واضحة وضوحًا ثابتًا" ويضارع ذلك قولهُ في تلك المقالة ما "ذكر وستن النباتي الانكليزي ١٨٢ نباتًا حسبها غيرهُ انواعًا وهي صنوف"

وقد وقفت على كلام للعلاَّمة هُدْج على وحدة النوع الانساني خلاصتهُ ان علماء الطبيعة اختلفوا في حقيقة النوع لاعتبار بعضهم فيهِ ما لم يعتبرهُ غيرهُ فنشأَ عن ذلك كثرة الانواع عند فريق وقلّتها عند الآخر ولهذا رأَى ذلك العلاَّمة قبل ايراد الادلة على اثبات النوع الاتفاق على تعريفهِ والتسليم بهِ ثم قال اما حقيقتهُ عندنا فتقوم بما يأْتي . الاول وجود خواص النوع في كلٍّ من افرادهِ. والثاني بقاء تلك الخواص في الاعقاب المتوالية . والثالث القدرة على التوالد

قلت وهذا غاية في فصل النوع عن الصنف فان افراد النوع الواحد وصنوفهُ متماثلة في الخواص النوعيّة وتلك الخواص مستمرَّة مدّة بقاء نوعها والتوالد بين افراد الصنوف المختلفة كالتوالد بين افراد الصنف الواحد وهذا ليس في الانواع

"مسائل على الخصم مشاكل" فقال "كم هي الانواع وهل جمهور الطبيعيين متفق على عددها وان كان غير متفق فلماذا هذا الخلاف. وهل من فاصل يفصل النوع عن التباين (اي الصنف) فصلاً تامًّا واذا كان هذا الفاصل لا يوجد فما سبب هذا الارتباط ان لم يكن تكوُّن الانواع من التباينات والتباينات من الافراد).
قلت لم يقع الاختلاف بينهم في عدد الانواع لاتصالها بالصنوف كما قال بل لعدّة امور. منها اختلافهم في تعريف النوع لاختلاف الاعتبارات. ومنها خطأُ بعضهم بأن حسب بعض الصنوف انواعًا لقصر المعرفة او عدم التحقيق او لغرضٍ او هوًى (شرح بخنر مقالة ١) والاختلاف في التعريف لاينفي المعرَّف والاَّ انتفت امور كثيرة . والعمدة في بحثنا اثبات الانواع والفرق بينها وبين الصنوف . وصاحبنا قد اثبت الانواع والصنوف والفرق بينهما بدعواهُ "ان تكوُّن الانواع من التباينات والتباينات من الافراد" وهي عين دليلهِ فانكارهُ ما يفصل بين الصنوف والانواع مناقضٌ لتفريقهِ بينهما. وهذا من اغرب ما وقفت عليهِ من خبطهِ فانهُ جمع بهِ في عريض مدَّعاهُ النقيضين والمصادرة أَكذا تكون ادلة "الابطال المجربين"

هذا والمستر دروين نفسهُ اثبت الانواع والصنوف وفصل

ما سمعهُ ولم يشاهدهُ وقال انهُ اعجب المسموعات فهو كاحاديث الغول والعنقاء

اما الذي ذكرتهُ من امر مشابهة ما يولد بعد البغل من والدٍ من نوع والدته فهو مما لا ريب فيهِ ثبت بالتجربة واشتهر في كتب علماء الفيسيولوجيا وغيرهم . وللدكتور ورتبات كلامٌ وافٍ بذلك (انظر اصول الفيسيولوجيا صفحة ٤٩٣ و ٤٩٤) . وبقي انهُ نقل ما خلاصتهُ "ان بوفون ذكر في ٢٨ آذار سنة ١٧٧٣ ذئبة لاحد الامراء ولدت من كلبٍ في ٦ حزيران انثى وثلاثة ذكور حملت الانثى من احدها" .قلت اذا صح ذلك ثبت ان الكلب والذئب صنفان من نوع واحد وذلك قولٌ مشهورٌ لكثيرين من المتكلمين في طبائع الحيوان وقد قالوا بصنفٍ من الكلاب متولد من الذئب والكلب (نظام الحلقات للدكتور جورج بوست صفحة ٥٧ و ٦٢).وهذا ما صرحت بهِ سنة ١٨٨٣ وذكرتهُ في الآيات البينات (صفحة ١١١) فالذئب على الارجح كلبٌ وحشيٌ والكلب ذئبٌ دجن منذ عهدٍ قديم (تاريخ كاسل الطبيعي مجلد ٢ صفحة ٦٣)

وبقي ان حقائق الانواع صور ذهنية تصدق على الافراد في الخارج كسائر الكليات الا انها تقال على متفقات في كل شيءٍ

المختلفة فان لكل نوعٍ بنية وخواص ولا توالد بين نوعين مختلفين فلا نتاج من فرس وثور ولا من ذئبٍ ونعجة وقس على ذلك سائر الانواع سوى ما كان بينهُ وبين غيرهِ مشابهة قريبة كالحمار والفرس ولكن نتاج مثل هذا لا يتسلسل كالبغال والامتحان احسن شاهد واوضح حجة والبغال وافرة. ولكن بطل "الحقيقة" دفع ذلك بنقلين

الاول قول ماتياس دوقال "ان سنسون ذكر حوادث كثيرة ثابتة فيها حملت البغلة من الحصان" فعلى هذا اقول ان كان سنسون قد شاهد ذلك ثبت منهُ ان النتاج قد يكون بين الخيل والبغال ولكن ذلك لا يتسلسل قطعاً كما بين افراد النوعِ الواحد. ويحتمل ان سنسون اخطأَ بأن ظن اتاناً او حجراً بعد بغلٍ بغلة فانهُ اذا ولدت الاتان من حصان او الحجر من حمار فقد يكون المولود كالبغل

والثاني ما ذكرهُ الدميري في حياة الحيوان الكبرى قال في وصف البغل "وهو لا يولد لهُ لكن في تاريخ ابن البطريق في حوادث سنة اربع واربعين واربع مئة ان بغلة بنابلس ولدت في بطن حجرة سوداء وبغلاً ابيض قال وهذا اعجب ما سمع انتهى" فترى ان الدميري نفى ان يُولَد للبغل ونقل عن ابن البطريق

وقطع النظر عن سائرها كأن تميز صفات وردةٍ من حمرةٍ واستدارة وطيب رائحة وغير ذلك وتعتبر حمرتها وتصرف النظر عن سائر صفاتها

والتعميم وصف المتعدد بما اعتُبر في التحليل من الصفات كأن تقابل لون هذه الوردة بلون تالك ولون تلك بلون غيرها وهلمّ جرًّا فتجعلهُ صفة للجميع وتسميهُ لون الورد وبمثل ذلك نتوصل الى لون الدم والشقيق فتسمّي ذلك اللون حمرة فتصف بها كلاًّ من تلك المتعددات

والتركيب جمع المراد ما عُلم بالتحليل والتعميم في صورةٍ واحدة . وهو اما حقيقيٌّ وهو ان يجمع في الذات الحقيقيّة ما لها من الصفات المختلفة في الواقع كأن تجمع الحمرة والاستدارة وانتساق الاوراق وطيب الرائحة وسائر ما لا بدَّ منهُ من المشخصات في هذه الذات لتصوير هذه الوردة واما تخيُّليٌّ وهو جمع مختلفات لتصوير ما لا حقيقة لهُ كأن تجمع حمرة الورد ورائحة القرنفل في زهرة الاقحوان على نبتة الزنبق فتصور نباتًا لم يخلق ومثلهُ ان تضع رأْس العلاّمة دروين على بدن أَسدٍ بلا ذنب لهُ يمين ابن مقلة يكتب بقلم من ريش العنقاء على لوح الهواء تخطئة مناهج الحكماء

فاللبيب اذا احسن النظر في ما ذُكر علم ان الكليات

سوى المشخصات العرضيّة فليس في الخارج شيءٌ من الاجناس او الانواع فهي من الصور التجريديّة كما يتبين من هذه المقالة الوجيزة

المقالة الثالثة

في التجريد

التجريد فعلٌ عقليٌّ تكتسب بهِ الكليّات من الجزئيّات وهو على ما ظهر لي من فعل المتصرفة وهي قوّة من شأنها تركيب الصور والمعاني وتفصيلها والتصرُّف فيها واختراع ما لا حقيقة لهُ فلولاها كانت الصور العقليّة هويّاتٍ متفرقة لا علاقة بينها وكانت اللغة مجموع اعلام شخصيّة لكن تلك الاعلام قليلة جدًّا بالنسبة الى الكليات كاجناس الذوات مثل جماد ونبات وحيوان او اجناس المعاني كولادة وحياة وموت أو اجناس الصفات كسرف وكرم وبخيل

ودرجاتهُ ثلاث التحليل والتعميم والتركيب

فالتحليل النظر في كلّ من صفات الشيء واعتبار بعضها

الجنسيّة . وفي هذا السنّ نتوصل الى ما فوق ذلك الى جنس الاجناس

وللعلماء اعتبارات مختلفة فمنهم من يجمع عدّة من انواع الجنس في صورة واحدة يسميها بما اصطلح عليه ارباب علمهِ كذوات الفقرات لعدّةٍ من انواع الحيوان وبمثل هذا كانت الانواع والاجناس الاضافيّة او النسبيّة

فقد ظهر لك من ذلك انهُ لا يمكن الحصول على الاجناس الاّ بقطع النظر عن بعض صفات الانواع وانهُ يتعذر التوصل الى الانواع بلا قطع النظر عن شيءٍ من صفات الافراد لما علمت من أنّ كل اثنين غيرانِ مع التشابه او التماثل . وكثيرًا ما تكون مشخصات عدّة افراد من النوع متشابهة فيحصل من ذلك الصنف وقد يكون للنوع الواحد صنوف كثيرة وقد يعظم اختلاف بعض صنوف النوع حتى يحسبهُ غير نبهاء العلماء نوعًا فمنذ نحو خمسين سنة قام خصوم الوحي وقالوا ان الانسان جنسٌ يشتمل على انواع كثيرة ولكن اولئك الخصوم رجعوا عن ذلك وقالوا بأن الزنجي والمغولي وغيرهما اجيال بل ما اكتفى بعضهم حتى جعل كل الانواع من صورة واحدة وسوف يرجعون عن هذا كما رجعوا عن ذاك وان لم تصدق هذه النبوءة فلها

من اجناس وانواع وغيرها صور ذهنيّة وان ليس في الخارج سوى الافراد وعرف كيف يتوصل الى تصوير الكلّيات من الجزئيّات وترتيب الطبيعيّات كما فطرها رب الطبيعة . فاذا انتبهت لصفات الفرد من البشر رأيتهُ مستقيم القامة بادي البشرة عريض الاظفار منتطر القدمين حساسًا متحركًا بالارادة ناطقًا اسمر ابيض او ذا لون آخر طويلًا او قصيرًا او ربعًا الى غير ذلك من الصفات الكثيرة ثم انتبهت لشخص آخر من الناس رأيت كثيرًا من صفاتهِ مثل كثيرٍ من صفات الاول فتترك المختلفات وتحفظ المتماثلات ثم تنتبه لصفات ثالث ورابع وخامس وهلمّ جرًّا وتفعل كما ذُكر فترى للجميع صفات مشتركة فتركبّها صورة واحدة. وهذه الصورة لا تكون الاّ في الذهن وتصدق على كل فرد من افراد الانسان ولا تصدق على غيرهِ فهي الصورة النوعيّة . ثم اذا انتبهت لصفات كلٍّ من الفرس والجمل والفيل وغيرها من الحيوان وفعلت كما ذُكر في افراد الانسان حصلت على الصورة النوعيّة لكل تلك الحيوانات. ثم اذا نظرت في تلك الصور رأيتها مشتركة في بعض الصفات كالحس والحركة الاراديّة وغيرها فتركّب منها صورة ذهنيّة تصدق على كل صورة من تلك الصور وعلى كل فرد من افرادها فهي الصورة

العلوم لانهُ لا بدَّ من التحليل والتعميم بعد مشاهدة الجزئيّات للتوصل الى الاصول

والسادس انهُ لا بدَّ من التجريد في وضع اللغات لان اكثر كلام اللغة كليٌّ ولا بدَّ من التجريد للتوصل الى الكليات

والسابع انهُ لا بد في التجريد من الانتباه والاَّ فلا يؤْمن الخطاء لما يعرض من الاشتباه في بادئ النظر فان الانسان من عادتهِ ان ينسب ما لم يَعهَد في اول روْيتهِ اياهُ الى الاقرب اليهِ مما عَهِد . قال احد العلماء "اهل جزائر الباسفيك حين نظروا البقرة حسبها بعضهم من الخنزير وعدَّها البعض من المعز لانهُ لم يكن عندها من الدواجن غيرها"

الدليل الثالث

خلاصة الدليل الثالث المشابهة بين الاحياء في بعض الاعضاء والاجنة وان كل جنين من بيضة او بزرة وجاء ببعض الرسوم فبيَّن مشابهة كف الانسان لكف بعض القرود وجناح الخفّاش وغيره ومشابهة جنين البشر في الاسبوع الرابع والثامن لجنين الكلب في الاسبوع الرابع والسادس ومشابهة جنين الدجاجة في اليوم الرابع والثامن لجنين السلحفاة في الاسبوع

اسوةً بكثيرٍ من نبوءاتهم

ولنا مما تقرر امور كثيرة أقتصرُ على ذكر ما يأتي منها

الاول ان الموصوف يعمّ بقدر قلّة الصفات ويخص بقدر كثرتها فالحيوان الناطق الرومي الكاتب اخص من الحيوان الناطق الروميّ وهذا اخص من الحيوان الناطق وهذا اخص من الحيوان

والثاني انهُ لولا المشخصات ما تميزت الافراد

والثالث انهُ لولا التشابه والتماثل ما كانت الكليّات

والرابع انهُ بالتجريد يتوصل الى التعريف فاذا اردت تعريف نوع جئت بمجموع صفات يختص بهِ او اتيت بجنسهِ موصوفًا بما يميزهُ عن غيرهِ من العرضيّات او الذاتيات ويصدق بهِ على كلٍ من افرادهِ. فاذا اردت تعريف الانسان مثلاً قلت هو حيٌّ مستقيم القامة بادي البشرة عريض الاظفار فان مجموع هذه الصفات ليس لغيرهِ او قلت هو حيوان ضاحك او ناطق. فالحيوان جنس للانسان والضاحك عرضٌ خاصٌّ بهِ والناطق صفة ذاتيّة لهُ ليست لسواهُ من انواع الحيوان وكلا القولين يميزهُ عن سائر الحيوانات ويصدق على كل فردٍ منهُ

والخامس ان التجريد من اول ما يفتقر اليهِ في استنباط

كل التباين ولو من مصورات الاوهام . وهل يستحيل ان يبدع الخالق الانواع مع تفاوت التشابه بينهما والخزّاف يستطيع ان يصنع من طينة واحدة "اناء للكرامة وآخر للهوان" والمشابهة بينهما اقرب مما بين الزنجي والقرد

ثم ان صاحبنا نقل دفع الاعتراض على القول بعدم استقلال الانسان عن القرد للتباينات التشريحية الكثيرة وهو يبذل جهده في ان يجعله كلبًا او قردًا للمشابهة بأن تلك التباينات حصلت بالارتقاء وهذا من الادلة على صحة قولي في المناهج انهم "يدفعون الاعتراضات على اوهامهم باوهام مثلها او ادنى منها" فكان عليه وعلى من نقل ذلك عنه ان يثبتا الارتقاء اولاً ثم يدفعا الاعتراضات به . ولكن هذا دأب صاحبنا انه اعتصم بوهن تقليده فتارةً يتخذ الدعوى دليلاً على نفسها وطورًا يدفع الاعتراضات عليها بها ويتطاول مع ذلك على ارباب البرهان بالتخطئة والتفنيد

واحبُّ هنا نقل ما قاله بعض اجلّة العلماء في هذا الشأن لانه اشدّ تأثيرًا في نفس المقلّد من الف برهان . قال العلاّمة لي كنت "الفرق بين الانسان وسائر الحيوان عظيم لا يمكن بيانه" (مبادئ الجيولوجيا صفحة ٥٨٧ و ٦٠١) . وقال العلاّمة

الرابع والسادس . وذلك لا يلزم منهُ ان الانواع نشأت من تغير الافراد الاَّ عند اهل الاوهام فانهُ تمثيل واهنٌ فالقطع بذلك النشوء بهِ مما تكاد اكف البهائم تصفق لغرابتهِ والاجنَّة تضحك بهِ. وهو الدليل الخادع عند المستر دروين. هذا وعلة تشابه الجراثيم والاجنَّة الى ذلك الحدّ بساطة التكوين وقصر النظر وهو الى حين بدليل ان التباين يعظم على توالي اقترابها من كمال التكوين فلا ينشأ من بيوض الانسان او اجنتهِ سوى اناس ولا ينشأ من بزرة اللوز الاَّ لوزة . وما ابعد الفرق بين الانسان والكلب والدجاجة والسلحفاة . ولو ثبت نشوء دروين بتلك المشابهة لثبت ان البيضة وكرة الارض تفرَّعنا من اصل واحد فانهما متشابهتان في امور كثيرة . منها النواة والقشرة وما بينهما . ومنها الشكل وهو ظاهرٌ. قال الاستاذ برستويخ في اثناء بحثهِ عن ثخن القشرة الارضية والسبب الاول لجبال النار "ان ثخن تلك القشرة يكاد ينقص عن عشرين ميلاً وانها مستقرة على طبقة لزجة لينة ليست عظيمة الثخن تحيط بنواة صلبة" ودليلهُ على ذلك نُشر في الصفحة ٢٨٢ من مجلد سنة ١٨٨٥ من النشرة الاسبوعية فمن شاء فليطالعهُ هناك . على ان التباين بين اثنين في كل شيء محال فلا بدَّ من اشتراكهما في بعض الصفات والاَّ فليأتنا بمتباينين

اعظم القرود اقل من ثلث دماغ ادنى البشر ومن نصف دماغ الطفل عند ولادته. ويتبين ذلك بطريق أُخرى وهي ان معدل ادمغة اهل اوربا وهي من اكبر ادمغة البشر ١١٢ قيراطًا مكعبًا ومعدل ادمغة اهل اوستراليا وهي من اصغرها ٩٩ قيراطًا وثلث قيراط فمعدل الفرق بين اكبر دماغ واصغره اثنا عشر قيراطًا وثلثا القيراط ولكن الفرق بين ادمغة اهل اوستراليا وادمغة اعظم القرود ٦٩ قيراطًا مكعبًا وذلك يبطل قول بعضهم "بأَن الفرق بين اعظم ادمغة البشر واصغرها ليس اقل من الفرق بين ادمغة البشر واعظم القرود" . وقال في تلك المقالة عينها ما معناهُ "يبني العصفور عشهُ والنمل قريتهُ على نمط واحد ابدًا اما الانسان فيرتقي بفعلهِ في الاعمال ومن شأْنهِ البحث في العقليات ودرس العلوم ونحو ذلك مما لا تستطيعهُ البهائم"

وقال في طبيعة الانسان الادبية في العدد الرابع من تلك المقالة ما خلاصتهُ "يعلو الانسان بالآداب على الحيوان كما تعلو السماءُ على الارض ولم يسع دروين انكار ذلك فحاول اثبات ان طبيعة الانسان الادبيّة نشأَت من انفعالات البهائم وعوائدها ولذلك بحث زمنًا طويلاً مع بذل الجهد عن جيلٍ خالٍ من الآداب والدين فعاد بالخيبة وقد اثبت ما تقدم كل الباحثين.

فرخو "يتبين لنا من الواقع ان بين الانسان والقرد فرقًا بعيدًا فلا يمكننا ان نحكم بأن الانسان سلالة قرد او غيرهِ من البهائم ولا يحسن ان نتفوه بذلك" (خطاب للعلاّمة كوك في ١٥ نيسان سنة ١٨٧٨). وقال العلاّمة ڤون بسكوف في بعض خطبهِ بعد ان درس هو والعلاّمة فرخو تشريح المقابلة بين الانسان والقرد "الفرق بين البشر والقرود اصليٌّ وبعيد جدًّا". وقال الدكتور جمس أنس في مقالةٍ لهُ في اصل الانسان ما خلاصتهُ "جلُّ ما اثبتهُ العلم الطبيعيُّ في اصل الانسان انهُ بُدِع بغتةً في اواخر المُدَد الجيولوجيّة في ختام خلق الاحياء وقد وضح ان لا برهان على تسلسل الانسان من البهائم". وقال في تلك المقالة ما معناهُ "اذا قابلنا ما اكتُشِف من آثار الاقدمين باناس هذا العصر ثم قابلناهُ بالقرود وضح لنا ان الفرق بين اقدم البشر كالفرق بين احدثهم والقرود في كل ما يختص بالبنية". وقال في تلك المقالة عينها ما خلاصتهُ "فدماغ الغورلاّ وهو اعظم القرود نحو ثلاثين قيراطًا مكعبًا ونصف قيراط ودماغ اهل اوستراليا الاصليين وهم دون جميع البشر في ذلك نحو ٩٩ قيراطًا مكعبًا وثلث قيراط ودماغ الشمبنزي واوران اوتان من القرود المعتدلة الجحوم ليس سوى ستة وعشرين قيراطًا مكعبًا فدماغ

بها وهو واضح". فانظر ما اوضح ذلك دليلاً على ان الانسان صنو القرد او على ان الانواع نشأت من تغيُّر الافراد . واعجب من براعة مولانا في علم الاستدلال ولكنهُ لم يكتفِ بوضوحهِ فزادهُ ايضاحًا بقولهِ ما خلاصتهُ "ان الرتيلاء لها ثماني ارجل والذبابة ستّ" فلا يمكن في شرع علمهِ ان يكون كلٌّ من الرتيلاء والذبابة كما ذُكِر الاَّ بذلك التنوُّع فألتمس من انصاف المطالع ان يعفيني من ابطال هذا الدليل لاني عاجز عن تحصيل الحاصل فبطلانهُ في نفسهِ اوضح من ان يُبيَّن . وقد تأمَّلت فيهِ طويلاً فلم يظهر لي الاَّ ان الاحياء مختلفة في الاعمال والاعضاء متفاوتة الرتب فهل يلزم من خلق الانواع اصلاً ان تكون متماثلة في كل شيء مع دعواهُ في ذلك ما يلزم منهُ ان تكون متباينة في كل شيء كما علمت

والثاني من تلك الثلاثة "الحالة الخنثويّة" . قال "ومن الادلة الحالة الخنثويّة فان هذه الحالة تكثر كلما هبطت في دركات سلّم الاحياء وتقلُّ كلما ارتفعت في درجاتهِ حتى يستقل الذكر والانثى كلٌّ منهما في فردٍ وحدهُ . قال مكس وبر في جريدة العلم الفرنسويّة بتاريخ ٣٠ ايلول سنة ١٨٨٤ ما نصّهُ "ومما ينبغي اعتبارهُ ان الحالة الخنثويّة الكثيرة في الاسماك نقل

ومن الامثلة التي اعتمدها دروين لاثبات زعمهِ محبة الكلب لصاحبهِ وخضوعهُ لارادتهِ وخوفهُ منهُ ونحو ذلك مما يشبه الاميال الدينيّة فردَّ عليهِ دوق أُف أَرْغَيْل بان الشعور بالاحتياج الى امر (كشعور الكلب مثلاً بالاحتياج الى صاحبهِ) مهما قوي لا يدل على شيءٍ من الشعور الديني فتمسك المشرف على الغرق بخشبة لاعتقادهِ انهُ ينجو بها لا يدل على ميلهِ الديني اليها فبين الانفعالات الدينية وانفعالات البهائم تباين عظيم جدًّا ولم يظهر قط من البهائم ما يشبه انفعالات الانسان واميالهُ الادبيّة والدينيّة"

ثلاثة ادلة اخرى

لقد ابدع بطل دروين ما شاء في هذه الادلة وافرد لها فصلاً لسموها على سائر ادلة "الارتقاء والتسلسل" واسماها واقواها

الاول ولعلهُ هو علة استخفاف ذلك البطل بي في "حقيقتهِ" وعروجهِ الى اعلى سموات الكبرياء واستوائهِ على عرش الصلف والاستهزاء ولا بدع فان من بلغت قوة نظرهِ ذلك المبلغ لجدير بأَن يستهين بعلماءِ الخافقين فهل يكترث بتسوّل على ابوابهم مثل اسير معروفهِ . ونصُّ ذلك الدليل "تقسيم الاعمال في الاحياء فكلما ارتقى الحيُّ تقسَّمت الاعمال وتميزت الاعضاء القائمة

فمن امثلة الاول انسان برجلٍ واحدة او يد او رجل باربع اصابع او اقل الى غير ذلك مما يضيق بهِ المقام. ومنها ما شاهدتهُ في المشهد الطبي للمدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت وهو بدن انسانٍ في الشهر الثامن جدار قناتهِ الفقرية غشائيٌّ في القسم الظهريّ كلهِ ومعدومٌ في القطنيّ والعجزيّ وجمجمة طفل وُلد حديثًا لا دماغ بها ولا تجويف للمخ اراني‌ها العلّامة الشهير الدكتور جورج بوست منذ اشهر وهو الذي اتى بها الى ذلك المشهد . ومنها ما شاهدهُ في مشهد الباثولوجيا في ڤينّا واخبرني بهِ وهو بدن بلا رجلين وجسم بلا رأْس وآخر بلا يدين وآخر لا أَثر فيهِ لاعضاء اخرى. ومن مُثُل ذلك الكوسج اي الناقص الاسنان

ومن مُثُل الثاني الاعنش اي من لهُ ست اصابع وهو من ابسط امثلة الأَشواه المزدوج كهيلن وجودث وهما الاختان الهنغاريتان المشهورتان كانتا ملتصقتين بالمتنين والافخاذ والاحقاء وُلدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتي السجايا والاخلاق وغيرها فكانت هيلن أَجسم من جودث واجمل والطف وانجب وكانتا متحابّتين كثيرًا ومرضتا وماتتا في وقت واحد . وكالولدين الاسودين اللذين وُلدا وظهر احدهما لاصق

كلما ارتفعت في سلَّم ذوات الفقر اذ يتضح تمييز الجنس اكثر فاكثر على ان بعض النصف مائيّة كالعجوم الذي هو بالحقيقة خنثى فان فيهِ غدة غير صغيرة . . . هي بالحقيقة مبيض وبيوضهُ صحيحة التكوين لكنها لا تلقح ولا تبلغ درجة النضج . قلنا وهذا دليل من الوف على سبب الاعضاء الاثرية وعلى الانتقال والارتقاء". قلت هذا ليس بدليل على نشوئهم ولكن لو ثبت ذلك النشوء لجاز ان يكون علةً لهُ وبُيّن بهِ على ان علة الخنثويّة في ذوات الفقرات العليا ظاهرة وهي اختلاط الجراثيم وعوارض التكوين كما عُرِف في التيراتولوجيا ويتضح في هذه المقالة الوجيزة

المقالة الرابعة

في التيراتولوجيا

التيراتولوجيا علمٌ يبحث فيهِ عن التشوّه او الشذوذ الخلقيّ. وهي من كلمتين يونانيتين "تيراتوس" (τερατος) اي أشْوَه و"لوغوس" (λογος) اي كلام. وهذا التشوّه يكون اما بالنقص واما بالزيادة او بكليهما او بتشويش الاعضاء وحدهُ او بهِ مع غيره

مؤخَّر وغيرهُ ذو اربع ايدٍ واربع ارجل وآخر ذو رأْس يعدل كل البدن . وإنباَني انهُ رأَى دجاجة لها اربع قوائم . ومنها ما شاهدتهُ في مشهد المدرسة الكلية المذكورة آنفًا وهو عجل ذو ثماني قوائم وطير ذو رأْسين

ومن مثُل الثالث شخص رأيت رسمهُ في احد كتب التيراتولوجيا وهو انسان ذو اربع ارجل لبعضها اربع اصابع

ومن امثلة الرابع وجود القلب والطحال في الجانب الايمن والكبد في الجانب الايسر (شمبرس مجلد ٦ صفحة ٥٤١) ومثُل الاقسام كلها كثيرة ذُكر بعضها في السكلوبيديا الاميركيّة الحديثة (مجلد ١١ صفحة ٦٦٧ و٦٦٨) وسكلوبيديا جنسُن العامّة الحديثة (مجلد ٦ صفحة ٥٤١) ورُسم كثيرٌ منها في كتب التيراتولوجيا الانكليزية والفرنسيّة وهي تكاد لا تحصى . قال بعض اصدقائي العلماء "يمكن الانسان ان يقول ما شاء في اختلاف تلك العوارض وهو آمنٌ من الخطإ لكثرة ضروبها"

قلت ولهذا عسر تقسيمها العلمي . قال العلاّمة جورج جكسون فيشر في مقالةٍ لهُ في التيراتولوجيا ما خلاصتهُ "اتى التيراتولوجيُّون بتقاسيم كثيرة لذلك ومنهم ليسيتوس وبوفون وبريشت وبلمنباخ وميكل وجفروي سنت هيلر وابنهُ ايسيدور

بظهر الآخر وشوهدا في الولايات المتحدة منذ عهد قريب .
وكريتا كرستينا التي وُلدت في سردينيا في آذار سنة ١٨٢٩
وأُتي بها الى باريس فماتت في تشرين الثاني من تلك السنة
وكالتوأمين السياميَّين شنغ وانغ كانا متصلين بالجنب وُلدا سنة
١٨١١ وشُوهدا في اكثر اوربا والولايات المتحدة وكانا على اتفاق
في الفكر والعمل وكانا في نيويورك منذ سنين وتزوَّج كلٌّ منهما
ووُلد له . ومنها الخنثى في الحيوانات العليا . وهل تتوالد الخناث
بنفسها ذلك عُلِم في كثيرٍ من الحيوانات المائيّة ولكن لم يُعلَم الى
هذه الساعة في الخناث البرية كالحلزون والخراطين وغيرهما
فانها كلها تتزاوج . واما الخنثويّة في ذوات الفقرات العليا فليست
كذلك وهي من عوارض التكوين الجنيني كما ذُكر (انسكلوبيذيا
شمبرس مجلد ٥ صفحة ٢٣٨) . ومنها ما تعددت فيهِ الاعضاء
المتماثلة التي لا يحسن التصريح بها في هذا المقام . ومنها الاشوه
المثلث كولدٍ ذي ثلاثة رؤُوس وُلد في كاتانيا سنة ١٨٢٣
(تاريخ جيفروي سنت هيلر في شذوذ التكوين مجلد ٣ صفحة ٢٣٧) .
ومنها ما شاهدهُ الدكتور بوست في مشهد فينَّا وهو بدن لهُ
رأسان وبدن ذو رأسين وصدرين وشخص ذو وجهين متحاذيين
ودماغ واحد وآخر ذو وجهين متوازيين احدهما مقدَّم والآخر

بعض الاشخاص

وللعلماء كلام طويل في علل التشوه الخلقيّ . منها عوارض التكوين من مرض الاجنّة والجراثيم واختلاطها فعليهِ تكون علة الخنثويّة في ذوات الفقرات العليا ذلك الاختلاط فهي ليست من الاعضاء الاثرية كما توهم بعض المقلدين والاّ لكانت اعم من ذلك كثيرًا او لكانت في كل فردٍ كعضلات الحركة في اذن الانسان او عمّت احد الجنسين كالثندأة في ذكور اللبونة ولكان سلف الانسان وغيرهِ من الحيوان متعدد ما يقبح ذكرهُ هنا وذلك مما لم يقل بهِ احد

ورأى بعضهم علة التشوه الانسانيّ ما يحدث من الانفعالات العقلية للوالدة في اثناء التكوين ويعارضهُ عرض مثلهِ في نتاج الحيوانات الدنيا من بيوض وولود وحدوثهُ في النبات مما لا عقل لهُ بالضرورة فانهُ يكثر فيهِ التشوه مفردًا ومتعددًا . اما مرض الجراثيم والاجنة فمما يسلّم العاقل بأنهُ من علل ذلك التشوه باقل رويّة فاذا حدث التشوه في واحدها لمرضٍ من نقص او زيادة او تشويش كان في ما ينشأ عنهُ . وصرّح علماء التيراتولوجيا بأن التشوه في الجرثومة من علل التشوه في نتاجها وحقق الاستاذ سمبسون الادنبرجي ذلك في مرض البيضة

وغرلت وأتو وبشكوف فجاء بعضها في غاية التعقيد وجاء البعض بسيطاً على ان دون التقسيم العلمي المَرَضِيّ موانع كثيرة" ثم اقتصر على ان قسم التشوه الى بسيط ومركّب وقسم الاشوه الى مفرد ومتعدد

والتشوه الخلقي بالنسبة الى كثرة الافراد قليل واقلهُ في الانسان واكثر الحيوانات الشوه نتاج المتائيم اي الاناث التي عادتها ولادة التوائم

قال بعض العلماء "اذا اعتبرنا عدد ما يُولَد من الشوه رأينا التشوه نادراً وهو بالنسبة الى الانسان كثيرٌ في الخنازير والبقر والغنم والكلاب والدجاج والمِتآم اكثر قبولاً لولادة الشوه"

وقال جورج جكسون فيشر "معدل المواليد الشوه واحد من ثلاثة آلاف والتشوه في الدواجن اكثر منهُ في الاوابد ومعدلهُ ٧٥٪ منهُ في اللبونة و٢٥٪ في الطيور وهو اكثر في النبات منهُ في الحيوان"

وقد ينتقل بعض ذلك التشوه بالوراثة فيكون من علل تغيُّر الافراد كما ذكرت في المقالة الثانية لكنهُ نادرٌ جدًّا وبهِ نُعرَف زيادة بعض الشرايين وغيرها ونقص بعض ذلك في

امكن من الايجاز وهي ما يأْتي

الاعتراض الاول

من لوازم مذهب دروين ان اقسام الحيوان المختلفة صنوف نوع واحد او بضعة انواع ولكن صنوف النوع الواحد مهما بعد احدها عن الآخر يستمر النتاج بينها بدليل المشاهدة والامتحان فيلزم بمذهب دروين ان يستمر النتاج بين كل الانواع او بين اكثرها وذلك خلاف الواقع فان ذلك الاستمرار معدوم بين الانواع المختلفة وهي كثيرة جدًّا وهذا ما سلَّم بهِ دروين نفسهُ وهو مسلَّم عند علماء النشوء الذاتي ايضًا. قال الامام هكسلي ما معناهُ "اذا كان قسمان من الاحياء يختلف احدها عن الآخر بصفات دائمة متكررة بلا توقُّف على الخواص الجنسيَّة فكلٌّ منها يُسمَّى باجماع الطبيعيين نوعًا" (اصل الانواع صفحة ١٠٤). وقال ما خلاصتهُ "اذا تزوج احد الانواع غيرهُ فقد ينتج ولكن اذا تزوجت البغال انقطع النتاج في تسعة وتسعين في المئة على ان النتاج بين اكثر الانواع المختلفة معدوم مطلقًا" (اصل الانواع صفحة ١٠٤ — ١١١). والمحقق انهُ لا نتاج متصل او متسلسل بين البغال. ومما يعتبر هنا ان النتاج منقطع بين كل البغال مع ان النسبة بين

والجنين (جريدة دبلين العلمية في نيسان سنة ١٨٢٣ وتشرين الاول سنة ١٨٢٨ وتموز سنة ١٨٢٩ ومقالة لهُ في الاجنة في سكلوبيديا التشريح والفيسيولوجيا) . والدكتور وليم روبرتس النيويوركي في امراض الاجنة (جريدة الطب والعلم الاميركية في آب سنة ١٨٤١ وتشرين الاول من تلك السنة) وفروليك واتُّو وغيرهم (سكلوبيديا جنسون مجلد ٤ صفحة ٧٨٣) وهو قول اكابر العلماء اليوم . واستيفاء الكلام على ذلك يطول كثيرًا وما ذكرتهُ وافٍ ببيان ان علَّة كل شذوذٍ خلقيّ في الحيوانات العليا من عوارض التكوين الجنينيّ

الفصل الثالث

في الاعتراضات على مذهب دروين

الاعتراضات على مذهب دروين كثيرة باجماع ارباب النشوء على اختلاف مذاهبهم. وايراد كلٍّ منها بالتفصيل يشغل زمنًا طويلاً مع الغنى عنهُ لما علمت في المقالة الاولى من ان الفرض اذا خالف شيئًا من الواقع بطل والاَّ لزم نفي الحق اليقين بموهوم او مظنون وهو محال ولذلك اقتصرت على اثني عشر منها مما

المشخصات او الاعراض الصنفيّة وقد بلغ ما عُرف في طبقات الميوسن من الانواع الحية اليوم ثلاثين في المئة وفي طبقات البليوسن نحو ثمانين في المئة وفي نهاية تلك الطبقات نحو ستة وثمانين في المئة (آراء دروين لرودلف شميد فصل ٣) .
والخلاصة ان في الارض ما لا يعدّ من الاحياء لم يظهر فيها شيءٌ من علامات التدرج في سلّم الارتقاء (الدرويني) فبقاياها منذ الوف وربوات من السنين لا تختلف عنها اليوم ولا موضع هنا لذكر كلٍّ منها بالتفصيل فمن اراد ذلك فعليهِ بكتب الجيولوجيا والبلينتولوجيا

ونقل صاحبنا البطل هذا الاعتراض عن المناهج مرتين وحرفهُ في كلٍّ منهما فقال في ديباجتهِ اني انكرت الارتقاء بدليل ان كثيرًا من الاحياء لم يظهر فيهِ شيءٌ من علامات التدرج. وقال في الفصل الخامس "والخصم لم ينكرهُ (اي الارتقاء) الاّ بناء على ان من الاحياء ما لم يظهر فيهِ شيءٌ من علامات التدرج في سلم الارتقاء فبقاياها منذ الوف وربوات من السنين لا تختلف عنها اليوم وهو انكار اصم لاعتبار الجزء بمقام الكل" لكن قولهُ في الديباجة منقول بالمعنى من المقالة الاولى والمقالة الرابعة من شرح بخنر لمذهب دروين ومن ذلك ما نصّهُ بترجمتهِ "فالبراهين المأخوذة

البغل والبغلة اقرب من النسبة بين والديها. اما اتصال النتاج بين الكلاب والذئاب على قول المحققين فلأنهما صنفا نوعٍ واحدٍ كما علمت

قلت وبناء على ذلك حكيم علمًا بأن كل الاجيال (اي صنوف البشر) صنوف نوعٍ واحد. قال إمامهم هكسلي "اني ممن يعتقدون الآن ان لا برهان على القول بأن الانسان نشأ اصلاً من اكثر من ابوين ويجب ان اقول اني لا استطيع ان ارى سببًا كافيًا او بيانًا صحيحًا للقول بأن الانسان غير نوعٍ واحد" (اصل الانواع صفحة ١١٢)

وقد تبيَّن مما ذُكر ان الحد الفاصل بين الانواع فيسيولوجي وهو ما لم يستطع الطبيعيون تحصيله بين صنفي نوعٍ واحد بالانتخاب الصناعي مع بذل جهدهم في ذلك (اصل الانواع لهكسلي صفحة ١٤٠ و١٤١)

الاعتراض الثاني

انهُ لم يتبين قط ان نوعًا نشأ عن آخر بل كل الانواع باقية على ما كانت عليهِ منذ خُلقت بشهادة البليئتولوجيا فاقدم ما عُرِف من افراد الاحياء اليوم لا يختلف عنها بسوى

دون غيرها لم ترتقِ فهل علم ان سواها ارتقى . ومقلدهُ لم يبين لنا ما تنوّع بالارتقاء ولاما الضرورة التي منعت ما بقي من التنوع بذلك . فلضرورة اي وزن او قافية في الطبيعة بقيت تلك الحيوانات غير متغيرة مع انها في عروض واطوال واحوال مختلفة . وبماذا يبرهن ان تلك الضرورة لا تعم الاحياء فتستأصل ارتقاء كل ابيته الدرو ينيين والمعطلين . فترى هنا قول بخنر ونقله عن غيره حجّة عليه وعلى دروين نفسه كما قلت في الفصل الاول

الاعتراض الثالث

عُلم مما ذُكر في اول الفصل الثاني ان الانواع في مذهب دروين نشأت من تغير الافراد بأن خالف كل ولد والدهُ في بعض الصفات الى ان خرج آخر الاعقاب عن حقيقة الوالد الاوّل فكان نوعًا مستقلاً فلزم ان يكون بين كل نوع وسابقهِ صور متوسطة الفرق بين كل متواليتين منها كالفرق بين الوالد وولدهِ والطرفان نوعان مستقلان وهذا لم يتبين لهم قط ولو في احدث الاحياء كالانسان مع صرف كل عنايتهم وكثرة المكتشفات . قال العلاّمة دانا "لم توجد الحلقة الاولى بين الانسان وغيره من سائر

"ن الطبيعة هي اولاً ان الاجسام الحية والحيوانات الجرية الاولى الدنيا (وزِيد في الحاشية) كالريزوبود والحيوانات النقيعية والفورامينيفار والاسفنج والطحلب الخ هي اليوم كما كانت في ابتداء العالم فأين التقدم هنا". وجاء في حاشية تلك الصفحة عينها ما نصهُ بالترجمة نفسها "ان اقدم انواع البراشيبود المعروف كان يعادل الانواع الحاضرة بكل الصفات الجوهرية والفرق انهُ كان في الماضي اكثر منهُ في الحاضر واكثر اختلافًا في الصور. ويزعم هكسلي ان مثل هذه الاحوال الواقفة كان موجودًا في الاسماك في بعض الادوار الجيولوجية مع تغير باقي الاشياء حولهُ واقدم حيوان معروف من الحيوانات الرخوة هو البراشيبود لينكولا وهو نوع من الصدف يوجد في سائر طبقات الارض ويوجد حيًّا اليوم ولكن بدون ان تخرج منهُ فروع" وادعى بخنر في المقالة الاولى من ذلك الشرح ان علة ذلك ما في القاعدة التي وضعها ليل ومعناهُ ان الصور العضوية تكون اثبت كلما كانت ادنى وسبب ذلك بساطتها وبساطة احوالها الخارجية وقال مقلدهُ انها الضرورة كصرف ما لا ينصرف من الاسماء! . ولكن تلك البساطة كانت على نشوئهم لكل الاحياء وهي في الحال الدنيا فكيف ارتقت وكيف علم بخنر ان هذه الاحياء الكثيرة

كثيرة حيّة ودفنية وبيّن كثرة الاولى بأن القائلين بالانواع كثيرًا ما يقفون محتارين بين نوع ونوع ولذلك اختلفوا في عددها . قلت وهذا ما لم يُسبَق اليهِ ولو علمهُ دروين لما تكلف بذل ما في وسعهِ لبيان فقدان تلك الصور. قال بخنر في المقالة المذكورة ما معناهُ "وكثيرون من الجيولوجيين والزوولوجيين والبلينتولوجيين يبحث عن صور متوسطة بين نوعين حيين وذلك عند دروين خطأٌ لان الانواع الحية غير آتٍ بعضها من بعض رأسًا بل كلٌّ منها منتهى نمو طويل في اصل سابق". هذا وقد علمت ان علة اختلاف العلماء في عدد الانواع الاختلاف في الاعتبارات والاغراض وخطأُ بعضهم بأن حسب الصنوف انواعًا وليس المطلوب هنا الصور المتوسطة بين صنوف النوع الواحد فانّا نقطع بها ولكن طرفي الصنف ليسا بنوعين مستقلين فلو ثبت ان الانواع نشأت كالصنوف لكانت مثلها في تلك الصور. وبيّن كثرة الثانية بالاركيوبتركس وقال انهُ صلة بين الزحافات والطيور وهذا اخذهُ عن استاذهِ بخنر ولكن بينهُ وبين الزحافات ابعد مما بين الانسان والقرد فيلزم على مذهب دروين ان يكون بينهُ وبين الزحافات من الصور المتوسطة اكثر مما بين البشر والقرود على ان العلامة اون انكر انهُ صورة متوسطة وقال انهُ طائر

الحيوان فانك اذا استقريت افراد الانسان رأيت درجات الارتقاء فيها من الادنى الى الاعلى ولكنك ترى بعد ذلك الحد فراغاً عظيماً بين الانسان واعلى افراد القرود فلو وُجدت تلك الحلقة ما امكن ان تفقد ولا يبقى لها اثر" (مختصر الجيولوجيا طبعة ٣ صفحة ٦٠٣). وقال العلاّمة اون في مقالة له في اصل البشر وهو من ايمة النشوء الدرويني "ظُنّت جماجم البشر قبل التاريخ الحلقات المفقودة ولكن لم يظهر فرق بينها وبين جماجم الناس في هذا العصر". وقال العلاّمة نلس "وُجدت دفائن كثيرة حسبوها انواعاً متقاربة وهي ليست سوى افراد نوعٍ واحد تختلف في السنّ" وكل ارباب النشوء يعتقدون انه لم توجد الصور المتوسطة سوى قليلين منهم قالوا بوجود ما لا يستحق الذكر منها وما ذكروهُ بعيد عن المطلوب جداً ولذلك قالوا انها وُجدت وفقدت لطول الزمان وبعضهم وكل الامر الى المستقبل وعلل نفسهُ بالاماني. قال الاستاذ بخنر في المقالة الثالثة من الشرح ما خلاصتهُ "واما من رأْي جورج بوشه بقولهِ من رسالة في الانثروبولوجيا لعلَّ البلينتولوجيا البشرية تظهر لنا يوماً اجساماً حيّة لا نعلم أَبشر هي ام قرود". ولكن صاحبنا دفع هذا الاعتراض في ردهِ عليّ بما خلاصتهُ ان الصور المتوسطة

من هذه ابعد مما بين كثيرٍ من الانواع الحية اليوم كما يتبين لمن شاهدها او وقف على صورها وصفاتها فيلزم على مذهب دروين ان يكون بينها كثيرٌ من الصور المتوسطة واني لا اشك في ان في طبقات الارض كثيرًا من الصنوف المنقرضة التي لا تزال انواعها حيَّة ولعل من ذلك التين الذي اكتشفهُ الموسيو كريفي وغيرهُ مما حسبهُ غير صاحبنا صورًا متوسطة بين الانواع . هذا ومرادنا بالصور المتوسطة في هذا الباب الحلقات من سلسلة التغيرات بين كل نوعين لا مطلق مشابهة احد الانواع لنوعين آخرين كمشابهة النعامة للطير والجمل ومشابهة الخفاش للطير واللبونة ومشابهة الحوت لهذه وللسمك الى غير ذلك مما يكاد لا يحصى

بقي ان المستر دروين اجاب على فقدان تلك الصور بما معناهُ "لان الصور نشأت بالانتخاب الطبيعي نازعت الاقل مناسبة منها فانقرض بالضرورة" . قلت وهذا نقض لما بيَّن اذ يلزم لقطع الاتصال بين الانواع ان الباقي طفر فجاءةً عن المنقرض طفرة لا يمثل ما قطعهُ بها بما بين الارض ونبتون ومذهبهُ ان الارتقاء لا يحصل الاَّ بالتدرج البطيء . وقال بخنر في المقالة الثالثة بعد ان تورَّك على اوهن من نسيج العناكب واما زوال

حقيقي (موسى والجيولوجيا للدكتور صموئيل كنس صفحة ٣٧٧).
وقال العلاّمة ريشرد بركتور بعد ذكر اكتشاف ذلك الطائر ووصفه "اقول بدون اطالة الكلام على خواص هذا المخلوق شك قليلون من الطبيعيين في انهُ طائر حقيقي لكن معظمهم اعتقد كل الاعتقاد انهُ كذلك. وقال الاستاذ اون انهُ باعتبار ما يختلف بهِ عن الطيور الحديثة يشبه الطائر في الحال الجنينيّة فان فقرات ذنبهِ تصغر تدريجًا الى نهايتهِ مع ان الفقرات الاخيرة من اذناب الطيور تكاد تكون الكبرى ابدًا لكنما قال اون اذناب كل الطيور وهي اجنة تكون فقراتها منفصلة وتصغر في بعض التغيرات الجنينية بالتدريج الى الاخيرة منها" (الدروس الطبيعية سنة ١٨٨٣ صفحة ٤٤). وقال صاحبنا بيانًا لكثرة هذه الصور "بيّن والدمار كوالسكي وحدة اصل الخنزير والمجترات" ولكنهُ لم يأتنا بشيءٍ من البيان والذي علمناهُ انهُ اتى ذلك في طريق التمثيل فتبيينهُ ما ذكر كتبيينهم وحدة كل الاحياء وقد عرفت وهنهُ. وقس على ذلك دعواهُ ان الهيباريون صلة بين الفرس والانخيثريوم وان هذا مشتق من الباليوثريوم وهذا يشبه "الطابير" باطرافهِ ويختلف عنهُ باضراسهِ ويقترب من الكركدن باضراسهِ ويختلف عنهُ بقواطعهِ فان بين كل اثنين

من النواميس الطبيعيّة التي جعلها اس ارتقائهِ لا يعقل لان بهِ يقتضي ان الطبيعة عاقلة حكيمة قاضية بسبق العلم اذ كوّنت على توالي الدهور لحيّ لا حواس لهُ العين وغيرها من المشاعر في احسن اتقان واغرب إحكام على ان دروين نفسهُ عجز ان يبين كيف نشأَ "ذنب الزرافة" بذلك الانتخاب (اصل الانواع فصل ٦ ومقالة لدوسون في جورنال اف سينس في آب سنة ١٨٨٥ صفحة ٤٤٥). والعجب من ان دروين اعتمد في ذلك مجرد فعل الطبيعة وهو من الالهيين. ولعل هذا ما حمل الاستاذ بخنر على ان قالَ في مقالتهِ الثانية من الشرح ما معناهُ "ان قاعدة مذهب دروين الاتفاق وكلهُ بافعال طبيعية لا شيء من القصد فيها وهو اعرق في المادية من مذهب لامرك الخ". فالانتخاب الطبيعي لا يمكن ان يكون اس الارتقاء الدرويني لان الطبيعة انما تؤثر في الموجود وليس لها ان توجد المعدوم فهي تفعل في ما هو من مقتضيات فعلها وتعجز عمَّا ليس كذلك فيمكنها ان تعمي العيون ولكنها لا تستطيع ان توجد البصر. قال العلاَّمة غراهام ما خلاصتهُ "القول بأَن الانتخاب الطبيعي انشأَ الوف انواع النبات والحيوان وربواتها وتغريد الطيور وبهاء الازهار حديث خرافة فانما الانتخاب الطبيعي يفعل في الفرد باعتبار ما لهُ من

الصور المتوسطة فلما حصل بينها وبين الانسان من شدة تنازع البقاء فهو مع وفرة مادتهِ من مقلدي دروين . هذا والمشاهد ان بين كل نوعين من الاحياء الباقية بينًا عظيًا وكذلك بين كل نوعين من المنقرضة كما تحقق في علم البليئتولوجيا

قال دروين نفسهُ "يندر بناء على ما عُلم في الجيولوجيا سلفٌ لما انقرض" وهذا السلف النادر الجنسُ او الطائفة او الرتبة لا النوع فانهُ لم يعلم قط ان منقرضًا نشأ عن سلف . والذي عُلم ان افراد النوع المنقرض في اعلى طبقتها مثل افرادهِ في اسفلها وما بينهما وما وراء ذلك فراغ كبير بينهما وبين التي قبلها . وحقق تلك المماثلة اكابر العلماء ومنهم العلاَّمة اغاسيز (التاريخ الطبيعي مجلد ٣ صفحة ٩١) واجمع البليئتولوجيون على ذلك الفراغ والخلاصة ان لا صورة متوسطة بين نوعين باقيين ولا بين منقرضين ولا بين منقرض وباقٍ . ومع ذلك يجب عليك في شرع صاحبنا ان تقطع بمذهب دروين او تبقى عرضة لهزئهِ وتهكم سائر انصارهِ المقلدين

الاعتراض الرابع

ان قول دروين بأنَّ الانتخاب الطبيعي وحدهُ او مع غيرهِ

هو عينهُ بذلك ونقلهُ عنهُ بخنر في المقالة الاولى فقال والنقل من الترجمة لفظاً "وقد ضرب دروين مثلاً لادراك الرابط الذي بربط الكوائن بعضها ببعض فقال انهُ كشجرة ذات اغصان خضراء متفرعة هي الانواع الباقية واغصان يابسة هي الانواع المنقرضة فالاغصان النامية لا تنمو هكذا الاَّ حتى تضر بغيرها ولا تنمو افانينها كذلك حتى تضر بما جاورها ايضاً فلكي تبقى الانواع نامية لا بدَّ لها من ان تتغيَّر وكل تباين فهو اشدّ حيويّة من الاصل الصادر عنهُ وكل نوع لا يتغيَّر لا يثبت واذا اضمحل فلا يعود" وهذا خلاف الواقع كما علمت في الاعتراض الثاني فارجع اليهِ وراجع ما نقلتهُ عن الاستاذ بخنر

الاعتراض السابع

لو صحَّ مذهب دروين لكان القرد اقرب الى الانسان في العقل والاعمال لانهما عندهُ من أَب واحد هو القرد الانسان ولكن البون بينهما اعظم ما بين قول دروين بذلك والحق. فان النملة اقرب الى الانسان من القرد في الادراك والدأب. مع ان للقرد ما ليس للنملة من الوسائط ويزيد على الانسان بأن لهُ اربع ايدٍ فلو عقل لاستطاع اكثر ما يستطيعهُ الانسان من

مناسبات تنازع البقاء ونقل الفائدة الى عقبهِ فالقول بأن تكرار هذا العمل البسيط وحدهُ كافٍ لانشاء كل غرائب الخلق العضوي محال" (قانون العلم صفحة ٣٢). ونتيجة ذلك انهُ لو صحَّ النشوء الدرويني بالانتخاب الطبيعي لوجب ان لا يكون عضو او وظيفة فيسيولوجية في حي ليس في الصورة الاصلية التي نشا عنها وهذا منافٍ لنشوئهم فلو ثبت ان الانسان نشأ بذلك الانتخاب من بهيمة ما كان سوى بهيمة ولكنهُ عاقل على رغم كل بهيم

الاعتراض الخامس

يلزم من مذهب دروين ان الفرد يميل دائمًا الى البعد عن الاصل الذي نشأ عنهُ والواقع خلاف ذلك فان الصنوف التي نشأَت من افراد النوع بالانتخاب الصناعي او التربية اذا تُركت وشأْنها عادت شيئًا فشيئًا الى اصلها. ومن ذلك ان نتاج بزور المطعمات كاصلهِ اي اذا بذرت بزرًا من ثمر شجرة مطعمة كان الناتج مثل اصلهِ البرّيّ وهذا يعلمهُ النحاة والفلاحون علاوة على الاستاذ بخنر (شرح مذهب دروين مقالة ١)

الاعتراض السادس

يلزم من مذهب دروين ان ما لا يتغير ينقرض وصرَّح

النشوئيين لما قاسوهُ من المشاقّ رغبةً في اعلاءِ ما لها من الشأن وبيان ما هي عليهِ من شرف النسبة الى الانسان لكنهم لا ينالون منها ذلك الجزاء حتى تبلغ درجة الانسان من سُلَّم الارتقاء

الاعتراض الثامن

يجب ان يكون على مذهب درون التغير في مراقي الصعود ابدًا ولكن العلم بيَّن ان كثيرًا من الاحياء تقهقر وان التغير قد يكون صاعدًا وقد يكون سافلًا وقد اعترف بذلك بخنر وغيرهُ من النشوئيين كما عرفت في المقالة الثانية وجرى على سننهم صاحبنا في حقيقتهِ لكنهُ قال ذلك لضرورةٍ وانا اقول انهُ يخالف نشوءهم بالضرورة

الاعتراض التاسع

يلزم من نشوء درون ان يكون كل نوعٍ من الاحياء اعلى مما قبلهُ ابدًا ولكن كثيرًا ما وُجد ان الانواع السابقة اعلى مما بعدها وهذا مما اجمع عليهِ العلماء فلا حاجة الى بسط الكلام عليهِ

الاعتراض العاشر

يقتضي مذهب درون ان الانسان قديمٌ جدًّا ولكنهُ تبيَّن

الاعمال وهو لا يستطيع التكلم مع توفُّر الآلة له وذلك لعدم العقل لان اللغة متوقفة على التجريد كما علمت في المقالة الثالثة وليس له ضمير ولا آداب ولا شيء من الانسانية وقد تقدَّم ما يكفي في مثل المقام في الفصل الثاني . قال بخنر دفعًا لذلك في المقالة الثالثة ما معناهُ "اذا أُريد مقابلة البهيمة بالانسان وجب ان تقابل بمتوحش افريقية او اوستراليا لا بأكثر الناس تمدنًا".

قلت لو هُذِّب متوحشو افريقية كما هُذِّب بخنر ما عدم منهم نظيرًا لهُ او ارفع منهُ وقد هُذِّب بعضهم فاحكم كثيرًا من العلوم وبعض اللغات والايقاع على آلات الطرب وسُمِع يخطب ارتجالاً باللغة الانكليزية وشوهد يوقع الالحان على آلة فاطرب الآذان ورأَى المشاهدون من آدابهِ ولطفهِ ما لم يصدقوهُ لو انبأهم احد بهِ . واذا احسن محبو الانسانية والحق الى اولئك المتوحشين بارسال وفرة من المعلمين صعدوا في عدة مراقي من سلَّم التمدن في زمان قصير . فهل يستطيع ذلك الاستاذ مع كثرة تقرُّبهِ من القرد وبذل جهدهِ في رفعة مقامهِ ومع بلوغهِ الدرجة التي هو عليها من التمدن وغزارة العلم والذكاء ان يعلِّم القرد الايقاع او ان يفهمهُ شيئًا مما وعاهُ ذهنهُ من الفلسفة . أَلا لو كان للقرود عقولٌ لجاءَت بأنفس هداياها الى ذلك الاستاذ وسائر نظرائهِ من

صاحبنا في حقيقتهِ "ان صحَّ مذهبي فلا بدَّ ان الزمان الذي مضى قبل تكون الطبقات الكمبريَّة السفلى والذي نجهلهُ كان طويلاً جدًّا وربما اطول منهُ بينها وبين اليوم لابد ان كانت الاحياء في هذا العهد كثيرة كذلك. الَّا انهُ يعترضنا هنا اعتراض صعب فان السير وليم طمسن يزعم ان يبس قشرة الارض لا يمكن ان يكون قد تم في اقل من عشرين مليون سنة ولا اكثر من اربعمائة مليون سنة وانهُ يقتضي ان يكون بين ثمانية وتسعين مليون سنة ومائتي مليون سنة وهذا الزمان كما ترى غير كافٍ لبلوغ الحياة الى اطوارها اليوم بالنشوء والارتقاء" انتهى بحروفهِ. قلت والسير وليم طمسن بنى ذلك على قواعد علم الفلك الطبيعي وقد اعترف دروين نفسهُ بأَن تلك المدَّة غير كافية فقال على ما نقلهُ مقلدهُ "وقد يمكن كما اشار اليهِ السير طمسن قصدًا ان الارض كانت في اطوارها الأُول معرضة في احوالها الطبيعية لتغيرات اسرع واشد مما هي الآن فحصلت تغيرات اسرع كذلك في الاحياء التي كانت تقطن سطحها في هذه الازمان البعيدة" انتهى بلفظهِ فترى هنا ان المستر دروين لجأَ لدفع هذا الاعتراض الى الفرض والاحتمال على ان ذلك احوج الى البرهان من ارتقائهِ وصاحبنا لم يجب على هذا الاعتراض بسوى

لاشهر العلماء واكابرهم من النشوئيين وغيرهم انهُ احدث الاحياء وانهُ كان منذ بضعة آلاف سنة . واثبت العلاَّمة دوسون انهُ كان في تالي العصر الجليدي وهو المعروف بالاكثر احدثيّة وفصَّل ذلك في خطبةٍ لهُ في الانسان قبل زمن التاريخ نُشِرت في النشرة الاسبوعيّة . (انظر صفحة ١٠٠ او١٠١ و١٠٥ – ١٠٧ من مجلد سنة ١٨٨٤ من تلك النشرة)

وقال الدكتور هويدن في مقالةٍ لهُ في قدم الانسان واصل الانواع "نظرت اربع فرق مستقلّة من الجيولوجيين في زمن نشوء الانسان فاتفقت على انهُ نشأ منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة". وذكر ذلك الدكتور دِمْس في مقالةٍ لهُ في النشوء

الاعتراض الحادي عشر

يقتضي مذهب دروين ان لا تجتمع الانواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الاولى الثانية ابدًا ولكن ذلك الاجتماع ثبت في المنقرضات والاحياء

الاعتراض الثاني عشر

يلزم على مذهب دروين ان الاحياء كانت على الارض قبل ان تصلح الارض للحياة. قال المستر دروين على ما نقلهُ

الباب الثاني

في مذهب الماديين

المقدّمة

في مبادئ الماديين

مبادئ الماديين كثيرة اهمها خمسة. الاول ان المادة ازليّة. والثاني ان العالمين كانت منذ الازل بالقوة في هباء الفضاء وان ذالك الهباء ذرات لا يمكن ان تُقسَم وهي الجواهر الفردة . والثالث ان اختلاف العناصر المعروفة اليوم وسائر الاجسام من اختلاف وضع الجواهر فعندهم الهدروجين المكبرت مثلاً وعطر الورد مثلان في الجواهر سوى وضعها او ترتيبها . قال الفيلسوف لكريشوس "الجواهر الفردة المبادئ الاولى". وقال الفيلسوف سبنسر "صفات العناصر المختلفة نتيجة اختلاف ترتيب جواهرها الفردة المتماثلة" . والرابع ان الاحياء الاولى نشأت بالتولد الذاتي اي انها نشأت من الجماد نشوءًا ذاتيًّا. والخامس

هذا النقل ومع ذلك ساقهُ تقليدهُ الى ان قال "واسخف الاعتراضات ما تعلق بالزمان" فانظر هل نطق فمٌ باسخف من هذا القول . على ان السير وليم طمسن قال ما نقلهُ دروين على تكوُّن القشرة الارضية ولكن على صلاحها للحياة قال لم يكن منذ اكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ سنة وفي ذلك جواز ان يكون منذ اقل ويسندهُ ان بعضهم قال بأَنهُ منذ ١٥٠٠٠٠٠٠ سنة وآخر بأَنهُ منذ ١٠٠٠٠٠٠٠ سنة . وقال العلاَّمة ونشل في كتابهِ "الحياة القالبيّة" بأَنهُ منذ ٣٠٠٠٠٠٠ سنة وذلك غير كافٍ لنشوء ذنب الحمار على مذهب دروين فكان على صاحبنا ان يبطل ادلة العلاَّمة وليم طمسن وغيرهِ من افاضل العلماء ان كان قد اطلع عليها قبل ان يتجاسر على الحكم باسخفيّة هذا الاعتراض

الفصل الاول

في المادة والجوهر والعرض

المادة ويرادفها الهيولى عرّفها بعض الاقدمين بانها ما يمكن توارد الصور عليها . وبعضهم بأنها امرٌ يقبل الاتصال والانفصال اللذين يطرآن في الحس على انواع الاجسام المحسوسة من حيث هي اجسام. والذي ظهر لي مما قالهُ ارسطوطاليس في الفصل الاول من الكتاب السابع من معقولاتهِ انها الجوهر المتصف بمدركات الحواس الظاهرة كاللون والشكل وما شاكلها . والجوهر عندهُ جزءٌ من الموجود لو نزع منهُ عُدِم سائرهُ او هو ما لا يحلُّ في موضوع. والمشهور في الكتب العربية انهُ الممكن الموجود لا في موضوع ومرادهم بالموضوع المحلُّ المقوّم لما حلَّ فيهِ . ويقابل الجوهر العرض وهو ما لا يقوم بنفسهِ ولا يوجد الاَّ في محلٍّ يقوم هو بهِ . وعرّف بعض الفلاسفة المحدثين المادة بما يُعرَف وجودهُ بالحسّ الظاهر

ولنا مما ذُكِر ان الجوهر قسمان ما يتصف بمدركات الحس الظاهر وهو المادة وما ليس كذلك وهو المجرّد . ومثال الاول الجسم الطبيعي. ومثال الثاني النفس الناطقة . والانسان

انهُ من تلك الاحياء الاولى تفرّع كل الاحياء من نبات وحيوان بمجرد تدبير الطبيعة . وهنا يلتقي مذهبهم بمذهب دروين . والسادس ان لا اله سوى ما صوّرتهُ أوهام الخوف وحيل الدهاة من روساء الاديان وقد مرَّ الرد على النشوء الذاتي وسيرد على سائر مبادئهم ان شاء الله

والتحيُّز بلا متحيّز وهو محالٌ . واذا ثبت ان الانسان لا يدرك بالذات سوى اعراض المادة ثبت انهُ لا يدرك تباين الموادّ او تماثلها الاَّ بتباين اعراضها او تماثلها فيدرك ان الحديد غير الماس لتغاير خواص العنصرين ويدرك ان هذه الماسة مثل تلك لتماثل خواصهما النوعية فالقول بتماثل الجواهر الماديّة من مخترعات الاوهام

ولنا ما مرّ ان الجسم مطلقًا مؤلف من جوهر وعرض وان الاول يستدل عليهِ بالثاني وان الثاني لا يدرك الاَّ قائمًا بالاول

وبقي ان بعضهم ذهب الى ان الصورة قسمٌ من الجوهر فعندهُ كلٌّ من العرض والصورة في محلّ لكن محل العرض مقوّمٌ لهُ ومحل الصورة ليس كذلك وهو باطل لاستحالة قيام الصورة بنفسها. وذهب البعض الى ان جوهر الجسم ابعادهُ الثلاثة اي الطول والعرض والعمق بدليل انهُ لا يمكن تصوُّرهُ بدونها وهو ليس شيئًا لانها قائمة بهِ ويستحيل قيامها بنفسها وهي واسطة للحكم بوجود المادة كسائر اعراضها الاَّ انها من صفاتها الضرورية فيمكن تصوُّر المادة بلا ثقل ولا لون ولكن لا يمكن تصوُّرها بلا تحيُّز

والقول بأن الجسم مؤلف من الجواهر الافراد لا ينفي

يجهل حقيقة كلا القسمين فانهُ لا يستطيع ادراك الجسم الاَّ باعراضهِ فيعرف الذهب بلونهِ وانطراقهِ ومطلهِ وثقلهِ النوعيّ الى غير ذلك من خواصهِ ولكن لا يعلم حقيقة ما تقوم تلك الخواص بهِ . وكذلك لا يقدر ان يدرك حقيقة النفس انما يدرك افعالها من تأمُّل وتذكُّر وتصوُّر وتصديق وتخيُّل الى غيرها من الافعال العقلية . قال العلاَّمة الفاضل الدكتور دانيال بلس في كتابهِ "الدروس الاوليَّة في الفلسفة العقلية" ما نصُّهُ "ان العقل يدرك لوازم المادة (اي الاشياء الخارجة عن ماهيتها) بواسطة المشاعر الخمس وليس في طاقتهِ ادراك ماهية المادة او حقيقتها وانما يدركها بافعالها او صفاتها المؤَثرة في العاقل" وقال "كما اننا ندرك المادة بواسطة لوازمها ندرك العقل بافعالهِ" . وقال العلاَّمة اسحق نيوتن في كتاب "المبادئ" ما ترجمتهُ "انما نرى صور الاجسام والوانها ونسمع الاصوات ونلمس السطوح الظاهرة ونشمّ الروائح ونذوق الطعوم واما الجواهر الباطنة فلا ندركها بحسٍّ ولا بفعل منعكس" ولكن مع عجزنا عن ادراك حقيقة الجوهر نتيقن ثبوتهُ بحكم العقل بداهة ان ما ندركهُ من الاعراض لا بدَّ من مقوّم لهُ او محل يقوم هو فيهِ والاَّ وجب قيام الاعراض بانفسها فقام البياض بلا ابيض والطول بلا طويل

كلها بالفعل ومتناهية وانها لا تقبل القسمة لا فعلاً ولا فرضاً . وقال ديمقراطيس الجسم البسيط مركّب من اجسام صغار لا تنقسم بالفعل بل بالفرض فصرّح بأن الجوهر الفرد جسمٌ ولعل هذا مذهب ماديي هذا العصر لكنهم خالفوا ديمقراطيس بقولهم بتماثل الجواهر الافراد . وذهب دالتون الى ان تلك الجواهر متساوية الحجوم مختلفة الاوزان باختلاف عناصرها وتبعهُ في ذلك جمهور الكيميين . فكلٌّ من مذهب ماديي هذا العصر ومذهب الكيميين ينفي الآخر وهذا لا ينكرهُ الاّ المكابر او ذو الجهل المركّب والاّ فمن جهل المذهبين جهلاً بسيطاً وابى التسليم لمن رأوا الهلال بالابصار فاعظم ما يمكنهُ فيهما التوقف. نعم ان الجوهر الفرد عند كلٍّ من الماديين والكيميين لا يقبل القسمة فعلاً ولكن ما يعتقدهُ الكيميون جوهرًا فردًا يعتقدهُ الماديون مركبًا من جواهر فردة . وممن صرّحوا بذلك وهم كثيرون الكُنت رشباخ (جرنال أُف سينس صفحة ٢٧٨ سنة ١٨٨٥) . فالجوهر الفرد عند الكيميين منقسمٌ فعلاً عند الماديين فجوهرا الفريقين متنافيان

المحل او المادة لان الجوهر الفرد على فرض وجوده لا يمكن ان يخلو من الاعراض المادية كالابعاد والثقل وغيرها مما لا يمكن قيامهُ في لا موضوع ويلزم من ذلك انهُ جسم خلافًا لقول بعضهم الَّا انهُ لا ينقسم على قول مثبتيهِ . واما قولهم بازلية المادة فسيأْتي ابطالهُ في الكلام على الحدوث والقدم واثبات الصانع الازلي عزَّ شأْنهُ وسما سلطانهُ

الفصل الثاني
في الجوهر الفرد

الجوهر الفرد عند القائلين بهِ اصغر الاجزاءِ التي تنتهي اليهِ قسمة الجسم البسيط وماديُّو هذا العصر يعتقدونهُ اصل الاصول وانهُ اول مبادئ السموات والارض . وقالوا بذلك اتباعًا لبعض الاقدمين من فلاسفة اليونان . ولعل اول قائل بهِ لوسيبوس ومنهم ديمقراطيس وهو امام الماديين في عصرهِ . واختلف القدماءُ فيهِ فنفاهُ جمهورهم وقال الاجزاءُ كلها بالقوة وغير متناهية اي كل جسم يقبل القسمة الى غير نهاية . وقال انكسافراطيس الاجزاءُ بالفعل ولا نهاية لها . وقال بعضهم الاجزاءُ

ولم يستطع القائلون بالجوهر الفرد اثبات قولهم بالبرهان منذ اول متوهمٍ لهُ الى الآن وصرّح بذلك اكابر الطبيعيين والكيميين (انظر صفحة ٥ او ١٦ من مناهج الحكماء). والظاهر ان الذي ساق دلتون الى القول بهِ غير ما ساق اليهِ الاقدمين وهو ايضاح انهُ "اذا تركب عنصر مع آخر على نسب مختلفة تكون النسب على سلسلة حسابيّة" وممّن صرّح بذلك صاحب الكواشف وهو تصريح بأن الجوهر الفرد فُرِض للايضاح وكم فُرِض غير واقعٍ لايضاح كثيرٍ من الواقعات وحسبك مفروضات الفلكيين القدماء. على انهُ لا شيء في فرض الجوهر الفرد من ايضاح كون تلك النسب على سلسلة حسابية فان الذي ابانها الامتحان . ولا من بيان لعلة كونها كذلك فانها لا تزال مجهولة والاّ فما العلاقة بين كون الاجزاء جواهر فردة وكون مركباتها على سلسلة حسابية وايُّ علماء الكيمياء يستطيع ان يبين لنا علة خلو بعض السلاسل من بعض حلقاتها بفرض ذلك الجوهر كما في مركبات الاكسجين والكلور مثلاً او علة بلوغ السلسلة عددًا قليلاً من الحلقات. فلماذا لم يكن لنا مثلاً مركّبٌ من جوهرين من النتروجين وستة او سبعة او ثمانية الخ من الاكسجين . ففرْض دلتون جوهرهُ الفرد لم يفدنا شيئًا في ذلك.

الفصل الثالث

في ان الجوهر الفرد لم يثبت ببرهان

قلت في المناهج "اظن الذي ساق بعضهم الى خلق الجوهر الفرد قولهُ بقدم المادة لانهُ وقع الاجماع من قبل اوسيبوس ومن ذهب مذهبهُ على ان كل مؤَلَّف حادث ولما رأَوا كل الاجسام مؤَلَّفة لجأُوا الى القول بانها مؤَلَّفة من اجزاء بسيطة لا تتجزَّأُ وان تلك الاجزاء هي مبادئ العالم الازلية" ويقوّي هذا الظن ان لوسيبوس وابيقورس وديمقراطيس وهم اقدم من عُرِف من القائلين بالجوهر الفرد كانوا يقولون بقدم المادة. ولا ريب في ان بعض الاقدمين نظر في تركيب الاجسام وتحليلها الى ابسط ما يمكن فانتهت بهِ الانظار الى صفاتها الضرورية من التحيُّز فقبول القسمة والحركة ومن عدم التداخل فرأَى ان تلك الصفات لابدَّ من قيامها في موضوع فحكم بتأْليفها فسمّى الموضوع بما معناهُ المادة او الهيولى وسمّى كل ما يقوم بهِ بما يفيد العرض. وهذا غير سبيل القائلين بالجوهر الفرد لانهُ ليس منتهى ذلك التحليل لعدم انفكاكهِ عن الصفات الضرورية كالمادة

قول دلتون هذا وقد علمت انهُ لا يثبت شيئًا من القول بالجوهر الموهوم . وبقي من ذلك استدلالهُ على ذلك الجوهر بقاعدتين من قواعد التركيب . الاولى "ان التركيب الكيمي هو دائمًا على نسب معيَّنة" ولا شيء فيها من البرهان على ثبوت الجوهر الفرد اذ معيَّنيَّة النسبة لا يمنعها انقسام الجسم البسيط الى غير النهاية فالماء يتركب من ايّ قدر من الهدروجين مع ثمانية امثالهِ ثقلاً من الاكسجين وهي لا تمنع من ذلك الانقسام والاَّ امتنع انقسام المركبات بأن التذويب كالتركيب على نسبٍ معيَّنة وهو بديهي البطلان . والثانية انهُ "اذا اتحد عنصران يتحد احدهما بالآخر على نسب معيَّنة بعنصر آخر فنسب اتحادهما بهذا العنصر هي نفس نسب اتحادهما بعضهما ببعض" . قلت وايضاح هذه القاعدة ان الكبريت مثلاً يتحد بالاكسجين على نسبة ٣٢ الى ١٦ والحديد بالاكسجين على نسبة ٥٥٫٩ : ١٦ ولكن الكبريت يتحد بالحديد على نسبة ٣٢ الى ٥٥٫٩ وهي لا تثبت الجوهر الفرد ولا تنفيهِ اذ لا لزوم لاحدهما عنها واذ انَّها تصدق على المركَّب كالامونيوم وهو منقسم بالفعل . هذا وعند الماديين متبوعي صاحبنا ما يسميهِ الكيمي بالجوهر الفرد مركب من جواهر فردة فهو منقسم فعلاً عندهُ فلا سند لهُ في قواعد التركيب الكيمي

وهو لا يوضح لنا شيئًا من امر التركيب الكيمي فقوله ان ذلك التركيب "عبارة عن اقتراب الجواهر بعضها الى بعض" (الكواشف الجلية صفحة ٧٨) وهم وهو على فرض التسليم بجواهره منقوض بان الحامض الهدروكلوريك يشغل ما يشغله جزآه من الهدروجين والكلور قبل التركيب (كيميا ولسون الآلية صفحة ٣٢)

بقي ان دالتون زاد على قول فلاسفة اليونان الاقدمين بالجواهر الافراد قوله بمساواة حجومها واختلاف اوزانها وهذا على فرض ثبوت الجوهر الفرد غالب لا مطرد فانه تبين على صحة ذلك الفرض ان حجم كلٍ من جوهر الفصفور والزرنيخ نصف الحجم الغالب وحجم كلٍ من الزنك (اي التوتيا) والكادميوم والزئبق مضاعفة (مبادئ الكيميا غير الآلية لبكستر طبعة ١٢ صفحة ١١) . وخلاصة ما يقال في فضل الجوهر الفرد ان فرضه يسهّل على الطلبة فهم قواعد الكيمياء بعض التسهيل ولكنه يوعّر عليهم مسالك كثيرة في غير ذلك من العلوم العقلية والطبيعية. وهذا يريك وهن قول صاحبنا "واما اليوم فالقول به (اي بالجوهر الفرد) ليس من قبيل الحدس بل نتيجة لازمة لنتائج علمية كما مرّ" . واما ما مرّ في حقيقته مرّ في ما نقلته من

الفصل الرابع

في نفي الجوهر الفرد

لا حامل لنا على نفي الجوهر الفرد سوى قول الماديين بقدمهِ وقول بعضهم بأنهُ علة العالم الازلية فاذا انتفى ثبت ان مبدأهم الاول واسّ فلسفتهم واصل عالمهم من اغرب ما صادتهُ حبائل الاوهام. على انهُ لو ثبت ما سلّمنا بانهُ ازليٌّ لعدم البرهان على قدمهِ والادلّة القاطعة على حدوثهِ كما سترى في الكلام على الحدوث والقدم لكن نفيهُ أنفى لقولهم بقدمهِ واوقع في النفس من اثبات حدوثهِ ولي على نفيهِ ادلة كثيرة اكتفي باربعةٍ منها

الاول ان جوهرهم الفرد جسمٌ لانهُ متحيّزٌ ذو ابعادٍ مؤلفٌ من جوهر وعرض كسائر الاجسام وامامهم ديمقراطيس نفسهُ صرّح بجسميتهِ فهو منقسم فان قيل هذا دليل على الانقسام عقلاً قلت ما امكن عقلاً امكن فعلاً وان لم نستطعهُ فلجهل الواسطة

الثاني ان مانع القسمة لا يخلو من ان يكون الدقّة او الصلابة او كلاهما وكل ذلك عرضيٌّ لا ذاتي على ان الاستاذ كلارك مكسويل نفى صلابة الجوهر الفرد وكذلك السير وليم

اثبتت جواهر دلتون ام لم تثبتها بل لو ثبت منها الجوهر الفرد الكيمي لانتفى الجوهر الفرد الماديّ على ان كليهما من صور الاوهام

وآخر ما اوردهُ صاحبنا من ادلتهِ على الجوهر الفرد قولهُ "ان لم تكن الاجسام مؤلفة من اجزاء منفصلة غير متلاصقة لها خاصّة التدافع والتجاذب فلا بدّ ان تكون مؤلفة من مادة متصلة متلاصقة ولا يمكن غير ذلك فان لم تكن اجزاؤها منفصلة فلا يبقى وجه لتعليل الحالات الطبيعية كالمساميّة والانضغاط والانقسام والتمدد والمرونة والجمودة والسيولة والغازية ولا يعرف ما التركيب الكيماوي". قلت ان اراد بالاجزاء الجواهر الافراد فقولهُ لا يمكن غير ذلك سقط وهمٍ علّتهُ عدم التروّي لجواز ان تكون الاجسام مؤلفة من اجزاء متصلة قابلة الانقسام فلا يعسر تعليل ما ذكرهُ من الحالات الطبيعية على ان نفاة الجوهر الفرد يقولون بانقسام الاجسام الى غير النهاية فالاجزاء عندهم اوفر من اجزاء مثبتيهِ فباب ذلك التعليل عند النفاة اوسع من دعوى المثبتين . هذا وحقيقة التركيب الكيمي لا تزال وراء حجب الغيب وما العلماء فيها سوى خواطر الحدس وسوانح الرجم ولله علم المصير

كون الحركة الباطنة وتغير الشكل يقتضيان القسمة بالفعل "وهو اجتماع النقيضين" فهو صحيح اذا اعتبرت الحركة شيئاً مستقلاً بذاته غير الجوهر الفرد وربما عنوا بالحركة الباطنة الذات ايضاً فكانت الحركة والجوهر الفرد شيئاً واحداً ويلزم ان يكون ذلك كذلك لان المادة في ادق اجزائها اذا فُرضت ساكنة لم تعقل وكذلك الحركة اذا فُرِضت بدون شيء متحرك لم تعقل او تلاشتا معاً وهذا لا يعقل ايضاً . قال ورتز ان القوة لا تكون وحدها بل لزم ان تصدر من شيء وان تفعل على شيء وان تظهر بحركة وكيف تكون حركة بلا شيء متحرك".

قلت لو عقل صاحبنا ما قال لدرى ان فيه ما لا يُعقل ولا يحسن ان يقال . وهو امور كثيرة انبه على خمسةٍ منها . الاول قوله ان الحركة هي الجوهر الفرد وهو باطل عند كل عاقل ويلزم منه على قولهم بتركيب كل الاجسام من الجواهر الفردة ان العالم كله ليس سوى حركات وهو ابطل منه واي عاقل يسلّم بأن الحركة والمتحرك شيء واحد وان كل اجسام السموات والارض حركات. وكيف يوفق صاحبنا بين قوله هنا وقوله في الفصل الاول من الباب الرابع من حقيقته "ان الحركة ليست سوى اهتزاز اجزاء المادة" على ان في هذا الحصر ما لا يخفى على

طمسن فانقسام المادة فعلاً الى غير النهاية ممكن بالذات

الثالث انهُ لو ثبت الجوهر الفرد لكان متغير الشكل كسائر المواد وهذا مسلَّم بهِ عند مثبتيهِ اليوم وممن صرَّح بهِ الاستاذ بلفور ستيورت قال "الجوهر الفرد في حال الحركة الدائمة وتغيُّر الشكل" (بقاء القوة صفحة ٧) ومقلّدهم في حقيقتهِ قال "ذهبوا الى ان الجواهر الفردة متماثلة في الذات مختلفة في الصفات وانها متحركة وشكلها متغير" (الحقيقة ٥٥) ومن المحال تغير الشكل بلا تبدل اوضاع الاجزاء وهو القسمة بالفعل

الرابع ان الجوهر الفرد عندهم متحرك الباطن ويلزم ان يكون كذلك لانهُ جسم كسائر الاجسام وممن صرَّح بذلك الاستاذ كلرك مكسويل قال "الجوهر الفرد وان كان لا يتجزأ (وفي الاصل لا يخرب) ليس بجسمٍ صلب بل قابل الحركات الباطنة" (خطاب في الدقائق صفحة ١٢) وتستحيل الحركة الباطنة بلا تغير اوضاع الاجزاء وهو الانقسام فعلاً. واعجب ما سمعتهُ اذنٌ قول صاحبنا ردًّا على قولي في مناهج الحكماء (ويستحيل بالضرورة الحركة الداخلية وتغيُّر الشكل بلا تبدل اوضاع الاجزاء وهو القسمة بالفعل فلزم من اقوالهم ان ما لا يتجزأ فعلاً يتجزأ فعلاً وهو محال لانهُ اجتماع النقيضين)" واما

ينزه عنهُ مثل ذلك الفيلسوف وهذا لفظهُ باللغة الانكليزية "but is capable of internal movements" والخامس حكمهُ بوحدة المختلفين بدليل تلازمهما وهو خبط غريب .
والطف ما استطيع ان اقولهُ هنا مَن كان راس مالهِ من الفلسفة كصاحبنا فخير لهُ ان لا يعرض بضاعتهُ في سوقها

وبقي هنا ان العناصر عندهم مركَّبة من الاثير فكل جزء من اجزاء العناصر المعروفة قطعة متكاثفة منهُ فالجوهر الفرد على ذلك اصغر اجزاء الاثير وعند صاحبنا ان الاثير لا يُقسم وهذا نصُّهُ في الصفحة الخامسة والسبعين من حقيقتهِ "ان الاثير ليس سوى الهيولى في ابسط ما يمكن تصورهُ" وفي الصفحة الرابعة والخمسين منها "فهي (اي الجواهر الفردة) كالهيولى تقبل القسمة فرضًا لا فعلاً لان الهيولى لا تقسم فعلاً مع انها ذات امتداد" ويلزم من ذلك ان كل العالم الماديّ جوهرٌ فردٌ واحد وصرَّح بكل ذلك بعد قولهِ في الصفحة السابعة "على انَّا لا نعرف في عالم الطبيعة جوهرًا فردًا بلا قوةٍ فهو انما يظهر بفعل القوة فيهِ تارةً على صورةٍ وطورًا على صورةٍ أُخرى وآونة مركبًا من اجزاء متشابهة واخرى من اجزاء متباينة" فهل رأيت اطول من باع صاحبنا في العلوم الطبيعية فمن استطاع من اهل الخافقين ان يثبت الجوهر

صغار الطلبة . والثاني نفيهُ ما يلزم من المتغايرين بنفيهِ ما يلزم من احدهما بتغيير معناهُ فانهُ سلَّم بأَنَّ الحركة الباطنة وتغيُّر الشكل يقتضيان القسمة بالفعل لكن فسَّر الحركة الباطنة بالذات ولم يتعرض لتغيُّر الشكل وهذا من معجزات التخريج والتوجيه واعظم آيات الدفع والنقض أَفترى حسب تغير الشكل الحركةَ الباطنةَ او الذاتَ عينها فان كان الامر كذلك فلماذا لم يصرّح بهِ لينظم في سلك معقولاتهِ . والثالث قولهُ "ان المادة في ادق اجزائها اذا فرضت ساكنة لا تعقل" فانهُ لا مانع من ان تعقل كذلك وان كان غير الواقع او ما لا يقع لان الحركة بالفعل ليست من صفات المادة الضرورية كالتحيُّز نعم من ضرورياتها قبول الحركة وشتان بينهُ وبين التحرك فعلاً. والرابع استدلالهُ بما يلزم منهُ نفي المستدل على اثباتهِ وهذا اغرب واعجب ما وقع في باب الاستدلال فانهُ استدل على اثبات ان الحركة الباطنة هي الذات وانها والجوهر الفرد واحد بقول ورتز "كيف تكون حركة بلا شيء متحرك" ولكن ان كانت الحركة هي الذات او الجوهر كانت بلا متحرك . وان كانت الحركة هي الذات عينها فمعنى قول الاستاذ كلرك مكسوبل "الجوهر الفرد قابل الحركات الباطنة" ان ذلك الجوهر قابل الذوات وهو هذيان

المعادن" ولذلك لا نعجب ان كان فيلسوفنا يبذل الجهد في البحث عن الاكسير او حجر الفلاسفة . واستدل على وحدة العناصر بوحدة القوى فقال "واذا صحّ تحوّل القوى بعضها الى بعض وصحّ ان اصلها الحركة — وهي واحدة — وصحّ ان الحركة اهتزاز اجزاء المادة فكيف لا يصح ان تكون المادة واحدة وان تتحول وتظهر بمظاهر مختلفة" وهذا من غرائب ادلته التي سئم القلم ذكرها فانّا لو سلمنا ان كل قوى السماء والارض واحدة وانها صفة لكل مادة وان اصلها الحركة لكانت المواد كلها مشتركة في تلك الصفة او في انها متحركة وهل تلزم وحدة المختلفات من اشتراكها في بعض الصفات فان صح ذلك صح ان الجواهر والاعراض واحدة لاشتراكها في الوجود وفي انها متصورة وصحّت على الثاني وحدة الخطإِ والصواب والقرب والبعد والاول والآخر وجميع صنوف المتضادات والمتناقضات ولعلهُ لفظ ما جاء بهِ في حقيقتهِ على هذا المبدإِ فلم يبالِ بما ارتكبهُ من ضروب المحال لان الممكن والممتنع في فلسفتهِ واحدٌ . ولي كلام طويل في حقيقة القوة واقسامها ومتعلقاتها يشغل مجلدًا برأسهِ عدلت عن ذكرهِ هنا لضيق المقام

وتعدد العناصر ظاهر لكل ذي نهى لم يتوغل في ظلمات

الفرد وتعدده ويثبت مع ذلك ان عالم الطبيعة كلهُ ليس سوى جوهر فرد واحد وان الجوهر الفرد لا ينقسم فعلاً وانه بسيط متصل وانهُ مع ذلك مركّب من اجزاء متشابهة او اجزاء متباينة. أفيجوز في شرع ألباب العلم الافاضل ان يدخل مثل هذا حديقة تلك العلوم الناضرة ويخبط فيها هذا الخبط ويدوس حرمة من لم يسلموا له بذلك وينسب اليهم الذي بدا منهُ. اوَما كان الاولى بمثلهِ ان لا يحرّك قلماً في مثل هذا البحث وعلى اقل ما يمكنهُ ان لا يتعدى لمن لا يتعرض له بجدال ولم يدعهُ قط الى نزال ليتيقن ان المناظرة لا تحسن مع سوى فرسان الحقائق اليقينيّة لا ابطال "الحقيقة" الوهمية

الفصل الخامس
في تعدد العناصر

عرفت ان من مبادئ ماديي هذا العصر ان اصل كل العناصر المختلفة مادة واحدة في الذات والصفات وان تلك المادة هي الاثير وعلى ذلك قال مقدمهم في حقيقتهِ ما نصّهُ "فربما كان الكيميون الاقدمون مصيبين في بحثهم عن تحول

غير الآلية الالفة الكيمية عدد ٦٢) وقال ما يقرب من ذلك ويفيد المراد الاستاذ بكستر (الكيمياء غير الآلية طبعة ١٢ صفحة ٥).وكذا قال العلاّمة بلفور ستيورت[١] دروس في المبادئ الطبيعية طبعة ١ صفحة ٦١ و٦٢).وكذلك قال الاستاذ ميكائيل فاراداي (خطب في قوى المادة المختلفة صفحة ٦٣) ولكن صاحبنا قال "اختلاف الطبع باختلاف الوضع" (الحقيقة صفحة ٥٨).

قلت لم يعلم الكيميون علة تماثل الاجزاء في بعض المركبات الآلية كالنشا والخشب والصمغ فظنّ بعضهم او فرض العلة اختلاف وضع الاجزاء كاختلاف المعنى من اختلاف وضع هذه الاحرف ح ل م فانهُ يتركب منها حلم وحمل ولحم ولمح ومحل وملح والذي اراهُ ان ذلك من التعليل البديعي لا التعليل الطبيعي ولا يستحق ان يُسمَّى تمثيلاً لشدة البعد بين علامات اصطلاحيَّة للاصوات وجواهر طبيعية في الاجسام على انَّا لو سلمنا بهِ لكان حجة عليهِ لا لهُ "واتسع الخرق على الراقع" فان ذلك يصح في الحروف المختلفة لا الحروف المتماثلة والاَّ فايُّ اختلاف كذلك في تغيير وضع ب ب ب باوجههِ الستة فهل يتألف منها سوى ببب فاذًا لا يتالف من المتماثلات سوى المتماثلات مهما تغيَّرت اوضاعها . على ان ذلك بيّنٌ بالامتحان فان العنصر الواحد

الضلال فالحديد غير الهدروجين وهذا غير الزئبق وكل عنصر غير سائر العناصر بالمشاهدة والامتحان والاّ لكانت ذات خواص واحدة كقطعتين من البلاتين مثلاً وكانت المركبات كبسائطها لانهُ لا يؤلَّف من العنصر الواحد الاّ مثلهُ فلا يؤلَّف من الاكسجين سوى اكسجين ومن انكر ذلك فعليهِ بالامتحان وهو اصدق شاهد. ولا اظن احد الماديين يجسر على ادعاء ان يركّب من الكلور لبأنًا ومن الكبريت عطر وردٍ كما جسر بطلهم على دعوى انهُ ركب من الضلال هدًى ومن الباطل حقيقةً.

ولا ابخل عليهِ في شأن التركيب الكيمي من الادلة النقليّة كما عوّدتهُ في الفصول السابقة لعلمي انها عند المقلّد اعظم من كل برهان فاقول

قال العلاّمة ولسون احد الاساتذة في مدرسة ادنبرغ الجامعة ما معناهُ وفق اصلهِ "لا تفعل الالفة الكيمية الاّ على الاجزاء المختلفة فلا يتحد بها مثلاً جزء من الحديد بجزء من الحديد ولا جزء من الكبريت بجزء من الكبريت ولا جزء من الاكسجين بجزء من الاكسجين ولا جزء من الهدروجين بجزء من الهدروجين فلا تكون الاّ بين جواهر انواع مختلفة" (الكيمياء

العقود كالعشرة بقطع النظر عن الشيء المدلول عليهِ بها هي غير الواحد المؤلفة منهُ والتي تنحل اليهِ". قلت هذا الاستدلال فاسدٌ من وجهين. الاول ان العدد تصور لا عينٌ فلا يصح ان يتخذ مثالاً للاعيان. الثاني ان الاختلاف بين العشرة والواحد في الكم فقط اعتُبر المعدود ام لم يعتبر واي اختلاف بين طبع الواحد وطبع العشرة. وغاية الغايات الخلاطيّة قولهُ في هذا البحث "والمثلث بهذا الاعتبار نفسهِ هو غير النقطة المؤلَّف منها والتي ينحل اليها". قلت وهذا فاسد من ثلاثة اوجه. الاول ان كلاًّ من النقطة والسطح وهميَّان فلا يستدل بهما على متحققات الاعيان. والثاني ان ذلك لا يحتجُّ بهِ الاَّ من سلَّم بتألُّف السطح من النقطة وانا من اول نفاته فان النقطة عندي كما هي عند كل ارباب الهندسة لا شيء لها من الابعاد والسطح ذو بعدين هما الطول والعَرْض ومن المحال ان يتألَّف الطويل العريض مما لا طول لهُ ولا عَرْض. ولعلَّ صاحبنا وقف على قول بعض الاقدمين في اصل الاجسام وهو ان "الوحدة تجزأَت فصارت نقطًا واجتمعت النقط خطًّا والخطوط سطحًا والسطوح جسمًا" وهو هذيان ولهذا قال بعض افاضل المتقدمين "ان اكثر هذه الكلمات رموز واشارات لا يفهم من ظواهرها مقاصدهم". الثالث ان النقطة حد مشترك

يبقى على حقيقته جامدًا وسائلاً وهواءً مع تغيُّر وضع اجزائه في كلٍّ من تلك الاحوال بالضرورة. واذا كان كل ذلك لم يقنعهُ فليأتنا من خالص الهدروجين مثلاً بمركب او عنصر آخر ويهزأ ما شاء بادلة اليقين

ثم قال "او ماذا يقول المعترض في المواد البوليمرفية اي التي تختلف هيئاتها ولا تختلف ماهيتها ولا تركيبها . وفي المواد الالوتروبيّة اي التي تختلف صفاتها ولا تختلف ذواتها" . قلت هي حجة عليهِ لا لهُ فانها مع تغير الهيئات والصفات وهي تقتضي تغيُّر وضع الاجزاء لا محالة تبقى ماهياتها ومركباتها واحدة . ومثال البوليمرفيّة الكبريت فانهُ اذا ذُوّب ثم تُرِك الى ان يتبلور كانت بلوراتهُ ذات ثماني زوايا واذا اصهر ثم تبلور كانت بلوراتهُ مناشير ذوات قواعد معينة ومع ذلك يبقى كبريتًا في الحقيقة والتركيب. ومثال الالوتروبيّة الفوصفور فانهُ اذا أُحمي منقطعًا عن الهواء الى نحو الدرجة ٢٤٠ تغيرت صفاتهُ فصار احمر مظلمًا بطيء الاشتعال لا يذوب في السائلات بعد ان كان اصفر شفافًا سريع الاشتعال يذوب في بعض السائلات ومع ذلك يبقى فصفورًا في حقيقتهِ ومركباتهِ . واين ما تقدم من استدلالهِ على اختلاف الطبع باختلاف الكم بقولهِ "ان اسماء

ان كل دقيقة من دقائق المركبات لا تقسم الاَّ بالحل الكيمي والاَّ اوجب الضغط على دقيقة الماء قسمة جوهر الاكسجين الفرد لانها مركبة من جوهرين فردين من الهدروجين وجوهر فرد من الاكسجين". والثالث "ان الاتروبين وان كان يذوب في الكحول الدقيقة منهُ لا تذوب فيهِ والاَّ انقسمت جواهرها الفردة لانها مركبة من سبعة عشر جوهرًا فردًا من الكربون وثلاثة وعشرين من الهدروجين وثلاثة من الاكسجين وواحد من النتروجين". ولم يجب على استغرابي الاول بسوى قولهِ "فليس فيهِ من الغرائب سوى هذا القول نفسهِ" فلينظر كل عاقل أَليس من الغرائب ان لا تأْثير لضغط اثقال العالمين جوهرًا من عنصر هوائي على جوهر من عنصر صلب. هذا بعد ما اوردت قول بعض ايمة القائلين بذلك الجوهر "انهُ ليس بصلب شديد فهو قابل الحركات الداخلية" (مناهج الحكماء صفحة ١٦). أَفاستغرابي ذلك خبط ام عدم استغرابهِ ان ضغط العالمين بلا تأْثير وعدُّهُ استغرابي اياهُ من الغرائب مع صحة استغراب الواقع كسقوط نيزك ثقلهُ عدَّة قناطير على ان ذا "الحقيقة" نفسهُ عجب من مشابهة يد الانسان ليد الكلب (الحقيقة صفحة ٢٦) وهي من معتادات الواقعات فكيف لا يستغرب ان ليس من

بين قسمي الخط فلا يمكن ان يكون مركبًا من النقط وكذا هي في خط في السطح وكذا الخطُ فيهِ ولبيان ذالك نفرض الخط ا ب ا ـــ ت ـــ ب ونقسمهُ الى قسمين بنقطة ت فهذه النقطة نهاية احد القسمين او الخط ا ت وبداءة القسم الآخر او الخط ت ب او العكس فهي ليست جزءًا من احد القسمين وكذا يبين بفرض سطحٍ وقسمتهِ اثنين ان الخط حدٌّ مشترك لها . وما كان اغنى صاحبنا عن التعرض للمسائل الهندسية في مباحثهِ الوهمية فان الهندسة من اول علوم اليقين . بل ما كان اغناهُ عن التظاهر بخوض بحرٍ لم يطأ ساحلهُ وتقلُّد سيفٍ لم يمس حمائلهُ

الفصل السادس

في غرائب الخَبْط وعجائب الخَلط

جاء صاحبنا في حقيقتهِ بفصل ترجمتهُ "كشف الخلط واظهار الغلط" وكل ما اتى بهِ على خلطي وغلطي على زعمهِ استغرابي ثلاثة امور من فرض الجوهر الفرد . الاول "انهُ لو وُضع جوهر من النتروجين على جوهر من الحديد وضُغطا باثقال العالمين ما نفذ احدهما الآخر وما تجزأ لانهُ لا يقبل القسمة" . والثاني

ذلك الفرض واجبهُ بمثل هذا على استغرابي عدم ذوبان دقيقة الاتروبين في الكحول وقد استغربنا عدم ادراكهِ هذه المسئلة البسيطة "وانّا لم نكن نتوقع منهُ مثل هذا الخبط لما يعهد من علمهِ وذكائهِ" (الحقيقة صفحة ٦١)

هذا وصنوف الخبط والخلط في كلامهِ وافرة مرَّ عليك كثيرٌ منها وبقي ما يشغل بيانهُ اكثر من صفحات حقيقتهِ فاقتصر هنا على بيان النذر منهُ فمن ذلك قولهُ "ثم ما الغرض يا ترى من نفي الجوهر الفرد" بعد قولهِ "وتذرع بذلك كلهِ الى نفي الجوهر الفرد لينفي ما يترتب عليهِ حيث قال ان الجواهر الفردة لم يثبت وجودها فلا يثبت لها عليَّة ولا قدم ولا حدوث". ومنهُ قولهُ في هذا الفصل "فما المراد من نفي الحركة" والكلام على نفي الجوهر فعندهُ ذلك الجوهر والحركة شيءٌ واحد وهل اعجب من خلط الجوهر بالعَرَض. ومن ذلك قولهُ في الصفحة الثامنة "فكل الاجسام المسماة عديمة الوزن كالحرارة والكهربائية والنور والمغناطيسيَّة وغيرها ليست شيئًا آخر سوى تغيرات مادية اي تغيرات في وضع الدقائق المؤلفة المادة منها فالحرارة والنور والصوت انما هي اهتزازات ارتجاجية في الاولين وتموجيَّة في الاخير" فكيف تكون الاجسام تغيرات واهتزازات وكيف تكون

تأثير لضغط العالمين مع لزومهِ من فرضٍ وهيّ هذا من غرائب الخبط.” وأنا لنعجب منهُ كيف ان معدتهُ لم تقوَ على هضم ما عدَّه من هذا القبيل سفسطة مع ان عقلهُ قوي على هضم ما لا يهضم وشرب ما لا يشرب مما لو اجتمعت اثقال العالمين وضغطتهُ ليدخل الى الذهن لم يدخل”

”وهل يرتاع من خوض السواقي
فتىً قد خاض في البحر الكبيرِ“

(الحقيقة صفحة ٦٠) . أهدينا اليهِ هذا من بعض آلائهِ لان تلك المعدة المعنوية وذلك الهضم العقليّ من مكتشفاتهِ الفيسيولوجية فهو بهِ

كالبحر يمطرهُ السحاب وما لهُ   فضلٌ عليهِ لانهُ من مالهِ

وهذا من ايسر السائغات بالنسبة الى ما وقفت عليهِ من سوائغهِ فلا تخشَ عليهِ غصصًا

وهل تقف البعوضةُ في مريءٍ   تعوَّد قبلهـا بلْعَ البعيرِ

واما استغرابي الثاني فاجاب عليهِ بقولهِ ”فنسألهُ وهل نقسم (اي دقيقة الماء) بدون ذلك واذا قسمت فهل تبقى ماءً“ فاقول على فرض الجوهر الفرد لا وهو سبب الغرابة فسؤالهُ من باب الخلط فانهُ لا مانع من جواز قسمتها وبقائها ماءً دون

فيها كثير من امثالهِ اعرضنا عنهُ سأمًا وفرارًا من التطويل . وغاية الغايات الخبطيَّة قولهُ في الصفحة التاسعة عشرة "بل اقتضى لهُ (اي الانسان) ملايين من السنين حتى خرج من الحيوانية الى الانسانية" والصحيح ان الانسان لم يخرج عن الحيوانية لانهُ حيوان ناطق فالحيوان جزء ماهيتهِ فلو خرج عنها لخرج عن الانسانية وهذا ما اجمع عليهِ العلماء حتى الدروينيون والماديون . ومثلهُ قولهُ في صفحة ٥٦ "فليس للحركة سبب سوى الحركة نفسها" فاثبت ان الشيء سبب لنفسهِ فلزم انهُ متقدم عليها اي انهُ كان قبل ان يكون ومنهُ قولهُ في الصفحة الرابعة والثمانين "الحياة البروتوبلاسما بل الحركة التي تحرّكها" وبعض ما فيهِ انهُ جعل الحركة والمحرك واحدًا . ومن غرائب الخبط قولهُ في هذه الصفحة "ان الطبيعيين والكيميين تحققوا بعد البحث ان القوى ليست سوى استحالات قوة واحدة هي الحركة" فان اقل ما فيهِ خلوهُ من الصحة فانهُ لم يتحقق احدٌ ان شيئًا من القوى يستحيل الى غيرهِ انما رأى بعضهم ذلك لادلَّة ظنيَّة ولم يستطع اقامة البرهان عليهِ على ان الحركة ليست بقوة واستحالتها باطلة كما سترى في الكلام على الحياة. ومثلهُ قولهُ في الصفحة عينها تحقق بالبرهان ان الحلقات الزوبعية ابدية ازلية لا تقبل القسمة. واغرب منهُ قولهُ

كذلك في نفسها. ومنهُ قولهُ في الصفحة التاسعة "فمن اين عرفوا ان القوة قد توجد مجردة عن المادة والحال ان المادة لا تنفصل عن قواها" والوجه ان يقال والحال ان القوة لا تنفصل عن المادة لان عدم انفصال المادة عن قواها لا يلزم منهُ منع وجود قوَّة مجردة ليست من تلك القوى على أنَّ قولهُ خبط جرى على وجههِ ام لا لان نفي كل قوَّة سوى الملازمة للمادة محض تحكُّم. ومنهُ قولهُ في الصفحة عينها المادة لا تتغير بعد اعترافهِ بتغيرها في الصفحة التي قبلها. ومنهُ قولهُ في الصفحة التاسعة عينها "ولو فرضنا وجود قوَّة مبدعة لما امكن وجودها باعتبار الزمان لا قبل الخلق ولا بعدهُ لا قبل الخلق لان ذلك يقتضي بقاءها مدة من الزمان بلا عمل وفي حالة السكون امام المادة التي لا صورة لها والساكنة ايضاً" وفي هذا عدة من صنوف الخبط والخلط نقتصر هنا على انهُ اثبت المادة قبل الخلق مع فرضهِ القوة الخالقة وسيأتي بعض ما بقي من ذلك في الكلام على القدم والحدوث. ومنهُ قولهُ في تلك الصفحة نفسها "لان اسبقية المعنى على اللفظ وضعية" والصواب على فرض صحة دعواهُ نسبيَّة ومثلهُ قولهُ فيها فالسبق هنا وضعي لا مطلق والصواب على الفرض المذكور نسبي او اضافي لا حقيقي وارتكب ذلك في غير هذه الصفحة وبقي

الفصل السابع

في الحياة والتولد الذاتي والبرتوبلاسما

لم يستطع العلماء الى الآن ادراك حقيقة الحياة او تحديدها انما عرفوها برسومٍ احسنها انها قوة توجب لما قامت بهِ من المواد شكلاً مميّزًا وخواص جديدة غير خواصّهِ الكيمية . فهي لم تُعرَف بسوى لوازمها كما لم تُعرَف المادة بسوى اعراضها والنفس الناطقة بسوى اعمالها . ومن لوازم الحياة في الحي الولادة والنمو التمثيلي المحدود والموت وهي من صفات الحي الخاصة باجماع الفيسيولوجيين. واختلفت آراء الماديين في الحياة فرأى بعضهم انها الحركة وبعضهم انها الحرارة وآخر انها الكهربائية وغيرهُ انها الحركة مستحيلة كاستحالتها على قولهم الى حرارة ونور وكهربائية ومغنطيسية وغير هولاء وهم الاكثرون انها نتيجة التركيب الكيمي فيتولد بهِ الحي من الجماد تولدًا ذاتيًا . واختلفوا بالمولد الاول فذهب بعضهم الى انهُ البرتوبلاسما بالبنية الكاملة والبعض انهُ كريّة ابسط من البرتوبلاسما سماها المونير وسماها غيرهُ بالبارثيبوس وغيرهُ بغير ذلك.وكل هذه الآراء بُنيّاتُ حَدْس واسقاط اوهامٍ باطلة بالبراهين البالغة والحجج الدامغة

في تلك الصفحة "الجواهر الفردة حركات في السائل لا انها اجزاؤها نفسها" فنفى ان الجواهر الفردة اجزاء الجسم وهو يقول ان الاجسام مؤلفة من جواهر فردة واغرب واعجب منهُ قولهُ على الاثر "فذاتيتها قائمة بهذه الحركات" والظاهر ان الكناية في ذاتيتها عائدة الى الاجزاء فيكون مرادهُ ان الاجزاء قائمة بالحركات اي الجواهر قائمة بالاعراض . وفي هذه الصفحة المباركة وغيرها كثيرٌ من مثل هذه الآيات والحقُّ انَّ في اقوالهِ ومناقيلهِ في الحياة من الوهن والركاكة والبطلان اكثر من كل ما اوعاهُ في بطون حقيقتهِ . واقتصر على ما ذكر من تلك الغرائب فان فيها الكفاية لكل لبيب. واختم هذا الفصل بقولي أَفما كان الجدير بحليف مثل هذا الخبط المجز ان لا يفتح فاهُ بالهزء والتهكم على من لم يتصدَّ لغير مودتهِ والتغافل عن وفرة ما يعهدهُ من غلطهِ وعثرتهِ . أَوَما كان الاولى ان يشغل الوقت الذي انفقهُ على تأليف حقيقتهِ الوهمية بما فيهِ الفائدة لنفسهِ ووطنهِ . ولكن لا مردَّ لما فات فلينتبه لما هو آت. فالحكيم من اتعظ في يومهِ بحوادث امسهِ واتخذ العبرة حارسًا لفهمهِ وقائدًا لنفسهِ

في التحرك

الثالث ان الحركة متقضية متجددة استحالت ام لم تستحل لان ذلك من لوازم حقيقتها ابدًا فلا يوجد منها الاَّ حركةُ الحال فحركة هذا الجسم الآن غيرها قبلهُ وحياة الفرد واحدة على توالي احيانهِ فحياة زيدٍ شيخًا هي حياتهُ عينها جنينًا والاَّ لزم انهُ مات وعاش مرارًا لا تحصى وهو من ابكار الباطل

الرابع ان الحياة جوهر لان لها اعراضًا ذاتية قائمة بها وانها علة فاعلة في تكوين الاعضاء والاَّ كانت نتيجة التركيب الكيمي وهو باطل كما سترى . وقد اعترف صاحبنا بجوهريتها (حقيقة صفحة ٨٠) . فلو استحالت الحركة اليها لانقلب العرض جوهرًا وهو من خوارق الطبيعة ونوافي الاحكام العقلية

الخامس ان الحياة متقدمة على الحي لانها العلة الفاعلة كما علمت والحركة لا تتقدم على المتحرك استحالت ام لم تستحل والاَّ قامت بنفسها وهو محال

ولي على قولهم باستحالة الحركة الى حياة مسائل كثيرة لا اراهم الاَّ عاجزين عن الاجابة عنها ببيان واكتفي بايراد خمس منها

الاولى انهُ هل يلزم من التسليم بان الحركة تستحيل الى

اما كون الحياة الحركة او الحرارة او الكهربائية فباطلٌ والاَّ لزم ان كل جسم حي يولد وينمو ويموت لان كل جسم من البسائط والمركبات ذو حركة وحرارة وكهربائية على ما تقرَّر في الطبيعيات وهو من عرائس المحال التي لم تزف الى تسليم عاقل

واما كونها الحركة مستحيلة او نوعًا من الحركة كما يقولون فلا دليل عليهِ وهو باطل لخمسة اوجه

الاول انهُ لو استحالت الحركة بقيت حقيقتها لان الاستحالة الحركة في الكيفيات اي الانتقال من كيفية الى اخرى فلا يتبدل بها الاَّ بعض صفات الحركة وصفات الحركة المتبدلة امور اعتبارية كالبطوء والسرعة وما شاكلها ولا شيء من الاعتباريات يوجب الولادة والنمو والموت الى غير ذلك من لوازم الحياة في الاحياء

الثاني ان الحركة عرضٌ لانها لا تقوم بنفسها والاستحالة من خواص الجواهر لانها تبدُّل الاعراض في المعروض الواحد او انتقال الذات من كيفية الى اخرى كما عرفت . والقول بقيام العرض بالعرض تحكُّم او دعوى بلا دليل وهو باطل بأن ما لا يمكنهُ القيام بنفسهِ يتعذر عليهِ تقويم غيرهِ . والسرعة والبطوء في الحركة نسبيَّان او اتصافها بهما مجاز حقيقتهُ اتصاف الجسم بهما

ان تظهر كذلك في بعض مركباتها

واما كونها نتيجة التركيب الكيمي فوهمٌ وتحكُّم كما مرَّ من اقوالهم وهو باطل ببراهين كثيرة أَقتصر على اثنين منها

الاول انها لو كانت نتيجة ذلك التركيب لسبق فسادُهُ الموتَ ابدًا وهو خلاف الواقع

والثاني ان علماء الكيميا ركبوا بعض المواد الآلية من الجماد فجاءت بلا حياة ولو كانت الحياة نتيجة ذلك التركيب لجاءت تلك المركبات احياء . وقد افتخر الماديون بتلك المركبات وحسبوها اول مراقي الصعود الى اثبات قولهم بالنشوء الذاتي اي حدوث الحي من الجماد لذاته بلا قوة خالقة وقد رأيت انها اول دركات الهبوط وآخرها من اوج دعواهم الى حضيض ابطالها . ولا عجب ان عادوا فقالوا ان تلك المركبات ليست كالآليات الحقيقية كما يقول اكثر العلماء غير الماديين ومنهم الدكتور إِلام والعلاَّمة بستور فاذا صحَّ قول الاكثرين وبطل القول بامكان تركيب الآليات غير الحيَّة من الجماد كيميًّا بطل دليلي الثاني وقام مكانهُ دليل اقوى منهُ وهو ان تركيب الآليات عمل الحياة خاصةً فيكون ذلك التركيب نتيجتها لا هي نتيجتهُ

وكل ما مرَّ من تمحُّلاتهم في هذا الفصل تمهيدٌ لقولهم بامكان

حرارة او نور او كهربائية او مغنطيسية انها تستحيل الى حياة او لا يجوز ان تلك كل ما تستحيل اليهِ

الثانية انهُ ان صحَّت استحالة الحركة الى حياة فلماذا انتفت الحياة من البسائط كالهدروجين والزيبق والحديد وغيرها من سائر العناصر فانها تستحيل على قولهم الى حرارة ونور وكهربائية ومغنطيسية في كلٍ منها

الثالثة انهُ ان صحت تلك الاستحالة فلماذا انتفت الحياة من كثيرٍ من المركبات كالحامض الكربونيك والماء وكبريتات الزنك وسائر ما ليس آليّ من المركبات لان الحركة في كلٍ منها تستحيل على دعواهم الى ما ذكر من الحرارة وما بعدها في كلها

الرابعة انهُ ان كانت الحياة نوعًا من الحركة فلماذا قلَّت عناصر الاحياء وكبرت جموم دقائقها ولماذا كان اكثر الآليات مركبًا من كربون وهدروجين واكسجين ونتروجين مع قليل من الفصفور والكبريت والحديد أفليس الحركة في غيرها وتستحيل فيهِ استحالتها المادية فيها

الخامسة انهُ لو كانت الحياة حركة مستحيلة لكانت في كل مادة بالقوة منذ كانت العالمين هباء فلماذا لم تظهر بالفعل في البسائط والمركبات التي عُرّضت لاحوال متساوية حين امكنها

في هذا العصر العلاَّمة بستور. ولم يتفق ارباب العلم على القول بتولد كل حيّ من حيّ الاَّ بعد ما بذل الماديُّون كل جهد في بيان التولد الذاتي وشغلوا بالامتحان سنين كثيرة فلم يصلوا الى سوى ما يجل على انكاره. ومع هذا كلهِ جاء صاحبنا اليوم يشيد صروح اوهامهِ على ذلك الطلل البالي

واما البرتوبلاسما فهي المادة النتروجينيّة اللزجة في خلايا النبات الحي سماها بذلك فون مُهْل النباتي الجرماني الشهير سنة ١٨٤٦ من كلمتين يونانيتين وهما بروتوس (πρωτος) اي اول وبلاسما (πλασμα) اي مركَّب او مصوَّر او مكوَّن . وفي تلك السنة عينها قال الاستاذ پيْن بمماثلة تركيب البرتوبلاسما الكيمي لتركيب المادة المكوّنة في الانسجة الحيوانية وسُمّيت هذه بلاستيما وسُمّيت في الحيوانات الدنيا سركودا وهو في اليونانية ساركوذي (σαρκωδη) اي لحميٌّ لمشابهتها الكيمية لحوم الحيوانات العليا . واكتشفهُ دو جردين قبل ان استعمل فون مهل لفظة البرتوبلاسما. ثم اطلقوا البُرتوبلاسما على كل تلك الجراثيم الحيوية. ولم يظهر للعلماء اختلاف في تركيبها الكيمي في شيء من الاحياء لكن قال الدكتور ستراين انها تختلف في القوام والاشكال والبنى والاعمال وفصَّل ذلك في كتاب لهُ في البرتوبلاسما وبيَّن

التولد الذاتي وهي كل ما استطاعوهُ من التذرع الى ذلك القول وقد ابطلناها كلها فبطل التولد الذاتي وظهر فساد قولهم بهِ

هذا وقد اعترف الماديون كلهم حتى ماردهم بخنر بأن التولد الذاتي لم يؤيَّد بدليل قال في المقالة الاولى من شرح المذهب الدرويني "ان الامتحانات لم تؤيّد التولد الذاتي". وقال الدكتور كربنتر "انهُ فرضٌ غريب لم يُدعم بدليل" (الاثينيوم سنة ١٨٦٣ الصفحة ١٦٤). وقال الاستاذ تندل ما خلاصتهُ انهُ ليس من ادنى دليل على امكان نشوء صورة حيَّة من الجماد (خطاب بلفست صفحة ٥٥ و٥٦). وقال الاستاذ هكسلي ما معناهُ انهُ لا يرى سبباً لاعتقاد وقوع التولد الذاتي (انتقادات وخطب الصفحة ٢٣٨). وهولاء من اعظم ايمة الماديين واما غير الماديين من العلماء فاجمعوا على بطلان التولد الذاتي وحسبوهُ ضرباً من الهذيان. قال العلاّمة دروين "التولد الذاتي لا يعقل مطلقاً" (الاثينيوم سنة ١٨٦٣ الصفحة ٤٦١). وقال العلاّمة فرخو "انهُ لا يصدق قطعاً" (حرية العلم في المملكة الحديثة الصفحة ٣٩). ومثل قوليهما ما يكاد لا يحصى. واول من ابطل مذهب التولد الذاتي بالامتحان على ما نعلم واثبت ان كل حيّ من حيّ فرنسسكو ريدي الطبيب الايطاليّ سنة ١٦٦٨. واعظم نفاتهِ

فهكسلي نفسهُ وهو الذي قال بالباثيبيوس وافتخر بهِ اولاً رجع عنهُ وخجل بهِ اخيرًا وقال ما خلاصتهُ "اقول آسفًا ان الباثيبيوس لم يوجد عند الطلب" . واثبت العلماء بعد الفحص والاستقراء ان ما سماهُ هكسلي بالباثيبيوس وادعى انهُ الصلة بين عالم الجماد وعالم الاحياء لم يكن سوى متجمعات هلامية مختلطة ببقايا موتى الحيوانات او رواسب كبريتات الكلس مع مواد اخرى زهيدة. ومثل هذا كثيرٌ من اجنَّة الخيال ومواليد الآراء هلكت ودُفنت منذ سنين في رموس الغول والعنقاء. ولكن صاحبنا مولعٌ بنبش قبور الاحلام ونشر موتى الاوهام. واشهد انهُ اول بطل في الخليقة جمع كتائب الاعلام تحت لواء "الحقيقة"

ولهُ في الكلام على الحياة والتولد الذاتي والبرتوبلاسما اقوال غريبة وخبطات عجيبة ذكرت بعضها في الفصل السادس من هذا الباب . بقي انهُ اتى في ذلك الكلام ما يوهم ان العلاَّمة بستور لم ينفِ التولد الذاتي والحق انهُ من اكابر نفاتهِ ودليل ذلك قولهُ في خطابٍ تلاهُ في ندوة العلم الفرنسية على اثر انتخابها اياهُ عضوًا "اني بعد النظر في اصل الجراثيم الحية برهنت على ما تحققناهُ الى الآن ان الحياة ليست بنتيجة قوى المادة فخدمت بذلك التعليم الروحي" . قال "الطبيب" من

ذكرهُ من اشكالها الكروي والكأسيّ والقاروريّ والمغزليّ والخيطيّ والدائريّ والهرميّ والاسطوانيّ والمنشوريّ وذكر انهُ لم يُعرَف لبعضها عملٌ

واختلاف اعمالها ظاهر في النبات والحيوان فمنها ما لا يركّب سوى ورق ومنها ما لا يكوّن سوى خشب ومنها ما لا يصوّر سوى عضل ومنها ما لا يركّب سوى عظمٍ وقس على ذلك سائر اعمالها في كل اجزاء النبت والحيوان المختلفة وما تركّب اجزاء الفرس لا يمكنها ان تركب شيئًا من اجزاء الفيل وما تكوّن اجزاء الحيوان لا يمكنها ان تكوّن شيئًا من اجزاء النبات. والخلاصة ان كل جرثومة تركب مثلها في جزئها ونوعها ولا تستطيع تركيب غيرهِ. ولا يمكن ان تنشأ احدى تلك الجراثيم الاّ من جرثومة حية وكلها تموت ويسبق موتها فساد تركيبها كسائر الاحياء. فليست الحياة نتيجة تركيبها الكيمي وليست من خواصها الطبيعية بل هي علة تكوُّن البرتوبلاسما وعلة اعمالها

واما قول بعضهم بالمونير او الباثيبيوس وبأنهُ ابسط صور البرتوبلاسما فان صحّ نُفي ان الحياة نتيجة تركيبهِ الكيمي او انها من خواصهِ الطبيعية بما نُفي انها كذا في البرتوبلاسما على ان ذلك القول اليوم اضحوكة للعلماء وان كان من تخيلات بعض العقلاء.

ابنته في هذا البحث كفاية لأُلي الالباب والله وليّ الحق والهداية الى طريق الصواب

الفصل الثامن

في القِدَم والحدوث واثبات الباري

ذهب الفلاسفة الماديُّون الى قِدَم المادَّة ونفوا الواجب تعالى . واثبت بعضهم ازليَّة قوَّةٍ اعتقدها علَّة تغيُّرات الصور الهيوليَّة . فكان عندهُ القديم اثنين القوَّة والمادة . فالأوَّل فاعل والثاني محلّ الفعل او موضوعهُ . ولا بُدَّ قبل اثبات الباري تقدَّس وتبارك من تعريف القديم والحادث واثبات بعض اصولها . فالقديم كائن لابداءة لهُ والحادث ما لهُ بداءة اي هو المسبوق بالعدم او الكائن بعد ان لم يكن واخترت من اصول القديم والحادث الستة الآتية .

الاول ان القديم ثابتٌ او لابُدَّ منهُ وذلك لان الكائنات باسرها اما قديمة واما حادثة واما بعضها قديم وبعضها حادث ولاواسطة فهو ثابت بالأول عند الماديين وثابتٌ بالثالث عندنا واما الثاني فباطل بالاجماع لانهُ معلول بلا علَّة كما سيحقَّق لك

مقالةٍ في النقاعيات ما نصّهُ " وكان قد نبغ في تلك الايام العلاّمة
بستور في مباحثهِ الكيماوية الدقيقة وابدع بتحقيقاتهِ في حلة
الاختمار فتصدى للمسئلة ونزل الى مضمار المساجلة فبحث فيها
بحثًا عجيبًا وفي سنة ١٨٦٢ نشر رسالة في الجسيمات السابحة في
الهواء بناها على ما اجراهُ بنفسهِ من الامتحانات التي لم يتصل
اليها احدٌ ممن سلفهُ في هذا البحث فانهُ التقط هذه الجسيمات من
الهواء المحيط بمعملهِ في سوق أُلم من اسواق باريز وتمكن من فحصها
بالمجهر فوجد ان اكثرها من ذوات البناء الحي فزرعها في
نقاعة بعد تطهيرها بالاغلاء مما تضمنتهُ من ذوات الحياة فنمت
فيها بعد حين وتكاثرت جدًّا وبذلك دفع حجة القائلين بالتولد
الذاتي وقوض اركان براهينهم واثبت ان كل حيّ انما يتولد
من حيّ "

قلت ومما يشهد بالافضلية للعلاّمة بستور " انهُ تكلم في كثيرٍ
من المباحث الطبية وكشف عن اسباب العلل الخميرية وهو
ليس طبيبًا " فناصبهُ كثيرون من العلماء " وشنعوا عليهِ المقال "
ولكنّ الله لا يترك اهل الحق اليقين بلا نصير " فانتصر لهُ منهم
قوم افاضل لا ينطقون عن الهوى كالاستاذ كهن والدكتور كوخ
من المانيا والعلاّمة تندل والجرّاح لستر من انكلترا " هذا وفي ما

لانهُ لا يمكن ان تخلو من صورة ولكن صوَرها زائلة متبدلة ولا شيء من القديم بزائل كما علمت من الاصل الثاني

الثاني ان المادة متغيرة باجماع كلّ العلماء وشهادة الحواس ولا شيء من المتغير بقديم كما عرفت من الاصل الثالث . واما قول صاحبنا في الصفحة التاسعة من حقيقتهِ بان المادّة لا تتغير فخرق للاجماع ومكابرة في المحسوس ومناقض لقولهِ في عدة مواضع من تلك الحقيقة بتغيرها ومن ذلك نصّهُ في الصفحة الخامسة والعشرين على "قابليَّة كل فردٍ بل كل نوعٍ للتغيّر تبعًا لنواميس حيويّة حقيقيّة لا فرضيّة كتغيُّر الجماد تبعًا لنواميس طبيعيّة"

الثالث ان كل ما في العالم خاضع للشرائع الطبيعيّة متأثر بها والتأثر من صفات الحادث لان القديم لا تنفعل فيهِ العالل كما مرَّ بك

الرابع ان المادةُ حادثة وكل حادثٍ معلول لغيرهِ كما علمت في الاصل الرابع فهي معلولة لغيرها وما صدق على المادة يصدق على كلِ العالم فالعالم معلول لغيرهِ وذلك الغير هو الباري جل شأنهُ وتقدّست اسماؤهُ

الخامس انهُ بطل ان الكائنات باسرها قديمة بالدليل الاول والثاني والثالث وانتفى انها باسرها حادثة كما ثبت في

الثاني ان القديم ابديٌّ اي دائم لايزول لان ليس لهُ من بداءة وما كان كذلك ليس لهُ من نهاية وهو مسلَّم بهِ عند الماديين والمعطلين انفسهم وقد اجمعوا على بطلان اعدام ما سنبين انهُ حادث فبالاولى ان يسلموا ببطلان زوال القديم

الثالث ان القديم لا يتغيَّر لان التغيّر أثرُ علَّةٍ في المتغيّر والقديم لا تفعل فيهِ العلل

الرابع انّ الحادث معلول لغيرهِ والاَّ كان علَّة لنفسهِ فتقدم عليها فلزم كونهُ قبل ان يكون وهو محال فلا يمكن ان يكون كلُّ كائنٍ حادثًا

الخامس ان الحادث يجوز ان يزول لان لهُ بداءة ويجوز ان يبقى اذا كان معلولاً لقديمٍ لإمكان ان يدوم بدوام علَّتهِ فكل ازليّ أبديّ وليس كل أبديٍّ ازليًّا

السادس ان الحادث العاقل لايدرك كل مقاصد علَّتهِ الازليَّة واعمالها لانهُ محدود وتلك العلَّة غير محدودة فمقاصدها واعمالها كذلك فاذا علمت ذلك علمت بطلان قولهم بقدم المادَّة وتحققت ثبوت الباري تعالى ولكن لزيادة الايضاح ابيّن بطلان الاول وثبوت الثاني بستة أدلَّة

الاول ان المادَّة لو كانت ازليَّة لكانت صورها كذلك

ذلك انهُ لو كانت الجواهر الافراد علّة ازلية لزم ان معلولاتها ازلية فلزم قدم المركبات من جماد ونبات وحيوان لانها تكون حينئذٍ علّة مضطرة في كل زمن فلا تنفك عن المعلول وذلك باطل باقوال المليين والماديين والكفرة والمعطلين. فقال صاحبنا ردًّا على ذلك في الصفحة الرابعة والستين من حقيقتهِ "ان الاضطرار للخالقية او سواها لا يلزم منهُ استكمال الوجود دفعةً لارتباط العلل والمعلولات بعضها ببعض وتحويلها بعضها الى بعض فالحياة يستحيل ان تظهر قبل ان يكون ماء والماء قبل تكوُّن هيدروجين واكسجين وهما قبل اجتماع اجزاء المادة على كونٍ يتألف منهُ ذلك. فوجود الحياة متوقف على وجود الماء ولو لحظة قبلها ففي قياس ايّ عقلٍ يصح وجودها ووجود سائر المركبات معًا وهل تكون السفسطة الّا كذلك". قلت ما ذكرهُ على ما فيهِ من الخبط والتشويش والمكابرة (بدعواهُ انهُ لا يلزم من اضطرار العلة الازلية قدم المركبات مع عدم انفكاكها عن الفعل ازلًا الذي هو معنى اضطرارها تقوية لحجتي لا دفع لها لانها ليست الّا بيان لزوم المحال من القول بالعلة الازلية المضطرة وهو قدم المركبات بانواعها . وقد بيّن هنا محالية ذلك بوجوب توالي المركبات وغيرها فنثني على مروءتهِ. ولا نعجب من افتخارهِ بالنصر

الاصل الرابع فبقي ان بعضها قديم وبعضها حادث على ما عرفت في الاصل الاول فالقديم هو الباري والحادث هو العالم

السادس ان العالم كلهُ في احسن نظام واحكام ناشرين الوية القصد والحكمة والاختيار والقدرة فلا بدَّ لهُ من صانع عاقل حكيم مختار قادر على كل شيء وليس هو المادة لان ليس لها من عقل ولا حكمة ولا قصد ولا اختيار لانها مضطرة مقسورة على السير في سنن الشرائع الطبيعية اما قول ذي الحقيقة "ان ما تسمونهُ قصدًا نسميهِ ضرورة" فليس بشيء لان الحقائق لا تتوقف على تسميتهِ . وعدم رؤيتهِ اشياء كثيرة لا ينطبق القصد عليها كما قال على اثر ذلك فالعجز مداركهِ لان الحادث لا يدرك كل مقاصد علتهِ الازلية كما مرَّ في الاصل السادس

وبقي على حدوث العالم واثبات الخالق براهين كثيرة لم أذكرها لما التزمتهُ من الاختصار ومن احب الوقوف على ادلة ذلك بالتفصيل والايضاح التام فعليهِ بمطالعة الباب الاول من كتاب "نظام التعليم" للعلاَّمة الفاضل الدكتور جمس أنس الاميركيّ

واما قول بعض الماديين بعلَّة ازلية هي الجوهر الفرد فقد ابطلتهُ في الصفحة ١٨ و١٩ من المناهج باقوى الحجج القاطعة ومن

والرابع ان الخالقية تقتضي ان القوة الخالقة كانت ساكنة قبل الخلق والجواب على ذلك ان الخالق جلّ وعلا قديم وليس بجسم فلا يتصف بسكون ولا حركة لا قبل الخلق ولا بعدهُ . وانهُ رتّب بحكمتهِ كل الحوادث منذ الازل واوجدها حين شاء لانهُ قادرٌ مختار

الخاتمة

كان في النية ان اتكلم بالتفصيل على كل ما جاء في هذا الرد من فروع العلم ولكن رأى احد اصدقائي العلماء الافاضل ان ذلك تضيق بهِ صفحات الاسبوعية ويشغل نشرهُ فيها زماناً طويلاً واشار عليّ بالاختصار ما امكن فاستصوبت ذلك واذخرت ما اعددتهُ الى حين الاقتضاء . على ان ما اتيت بهِ يزيد على ما اقتضاهُ ابطال دعاوي الحقيقة الوهمية وما استبطنها من الادلة الدروينية والتحملات المادية بفوائد كثيرة من العلوم المختلفة وما لم اقف لهُ على نظير في الكتب العربية ومن ذلك مقالة في استنباط العلوم ومقالة في التغيُّر ومقالة في التيراتولوجيا . على اني لم اذكر الاَّ قليلاً مما ارتكبهُ صاحب الحقيقة من الخطاء

لضربهِ نفسهُ بسلاحهِ لانّا اعتدنا مشاهدة ذالك منهُ وعرفنا السبب واذا عُرِف السبب رُفع العجب

وقد ذكر في هذا البحث اعتراضات اذكر خلاصة كلٍّ منها وابطالهُ بالايجاز

الاول ان لا شيء من لا شيء فالخلق من العدم لا يعقل والجواب ان لا شيء من لا شيء محال بنفسهِ لا بفعل قادر ازلي وعدم ادراكنا خلق الواجب القدير العالم من لا شيء لا ينفي ذالك الخلق لما ثبت في الاصل السادس ولانهُ لا يلزم من جهل الامر نفيهُ على ان صاحبنا اعترف بأنهُ يتعذر عليهِ معرفة اصل المادة وهو لا يؤمن بغيرها (الحقيقة صفحة ٦٤ وانظر الصفحة ٣٤ و٣٥ من مناهج الحكماء)

والثاني ان قدم الباري يستلزم قدم العالم والجواب ان الباري فاعل مختار يخلق ما شاء متى شاء كما ثبت في الدليل السادس فهو ليس دعوى بلا دليل كما ادعى

والثالث ان الله ليس بجسمٍ ولا بمنقسمٍ فلذلك ينكرهُ. قلت هذا ضرب من الهذيان والاَّ وجب ان ينكر قوى الطبيعة لانها ليست باجسامٍ وان ينكر جوهرهُ الفرد لانهُ ليس بمنقسمٍ على دعوى متبوعيهِ

فهرس

صفحة

الباب الاول

واعرضت عن ذكر كثيرٍ مما هام بهِ من ضروب الوقيعة وبقي شيءٌ قليل مما تورك عليهِ من المنقولات الخرافيّة كتتبع عين الراس المقطوع دائرًا حولهُ بحركة حيويّة وما شاكل ذلك من التصورات الصبيانية . ومثلهُ حسبانهُ تحرك عضلة الضفدعة الميتة حديثًا بواسطة الكهربائية مع تقديم الدم لها من وقت الى وقت تحركًا حيويًّا مع ان صغار الطلبة في مدارس العلم تعرف ان كلڤاني اكتشف الكهربائية في الضفدع وان تلك الكهربائية تبقى فيها وقتًا قصيرًا بعد موتها وانهُ يستحيل التغذية والتمثيل في الموتى بتقديم الدم لها وفعل الكهربائية فيها

هذا ولم اقصد في ردّي عليهِ سوى اظهار الحق اليقين وارشاد من شك من السذّج في وجود الباري تعالى او نفاهُ ممَّا وقف عليهِ في الحقيقة وشرح بجنر ومناقيل بعض المقلدين من وساوس غلاة الدروينيين وخبطات الغواة الماديين . فأسأَلهُ تعالى وهو الكريم الوهّاب ان يرشد بهِ الجميع الى طريق الصواب ويتوب عليهم انهُ الرشيد التوّاب

الحق اليقين في الرد على بيان دروين

Date	No.	Date	No.

صفحة